أحمد بن حنبل
وَانْتِصَارُ الدِّينِ عَلَى الدَّوْلَةِ

ذكرنا كيف هانت الدماء على خلفاء بنى العباس . وكيف أهدرت الحقوق وصودرت الأموال وخرجت السياسة بالخلفاء ورجالهم عن الخط الإسلامى جملة وتفصيلاً ، والخط الإسلامى هو منهج الله فى الناس والخلق ، إنه الإيمان والاعتصام بحبل الله ـ أى وحدة الأمة ـ والعدل فى التصرف والحكم ومراعاة الله سبحانه واتباع سنة رسول الله ﷺ فى العبادات والمعاملات .

وقد ضربنا مثلاً من امتهان الخلفاء لكل قواعد الحق فى الإسلام بما فعله الرشيد بالبرامكة . ونحن لم نقل إن البرامكة كانوا أبرياء صلحاء فى كل عملهم ، ولكننا قلنا : إنه مهما كان رأى الخليفة فيهم وشكه فى صدقهم وأمانتهم وتفكيره فى محاسبتهم فقد وضع الإسلام لذلك كله قواعد وضوابط ، فهناك شرع وقضاء ، ورسول الله ﷺ وضع للناس السنن فى صيانة النفس والمال ، وكان عبد الله بن أبى بن سلول والجدُّ بن قيس من رءوس المنافقين ، وكانا يسيئان لرسول الله ﷺ والمسلمين ولكنهما لم يجاهرا بعصيان أو ارتداد ، فحفظهما رسول الله ﷺ ولم يمسسهما بأذى فى نفس أو مال . وأسامة بن زيد بن حارثة اشترك فى سرية ، وقتل رجلاً بعد أن قال : لا إله إلا الله . ورسول الله يسأله فى ذلك فيقول : تعوذ بها من القتل . ويقول له الرسول الأكرم : هلا شققت قلبه ؟! أى : ما أدراك إن كان صادقًا أم غير صادق ؟

ولكن الرشيد لا يحقق أو يدقق ، ولا يرجع إلى قاض أو فقيه بل هو يقتل ويسجن ويصادر الأموال ، وقاضيه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم لا يعترض. ولا يبدى أدنى ملاحظة ، وأبو يوسف من أعاظم الفقهاء ، وأوسعهم علمًا ، ولكنه كان من فقهاء الدولة وفقهاء الدولة جزء من النظام وهو مشترك ـ ضمنًا ـ مع خليفته فى المسئولية عما كان .

ومضى هارون الرشيد إلى حال سبيله فى الثامنة والأربعين من عمره ، توفى بعد علة طويلة فقد كان يعانى من الفتق أو الهرينا . وأغلب الظن أنه مات من اشتداد علة السكر . وجاء ابنه الأمين وكانت سيرته ـــ مهما قلنا فى مبالغات المؤرخين فى تشويهها ـ

خارجة عن سنن الإسلام وأخلاقه جملة ، وقد التمسنا له العذر لصغر السن ، فقد كان فى الغالب فى الحادية أو الثانية والعشرين من عمره ، وحمل على كتفيه مسئولية دولة عظمى ، وضاع أمر المسكين فى صراع السلطان فى بلاط بنى العباس بين الحزبين العربى والفارسى ، والحزب العربى كان ضعيفًا مفككًا يرأسه الفضل بن الربيع بن يونس - وهو مولى عربى - ولكن ممثله الحقيقى كان هرثمة بن أعين ، وكان من كبار القادة والحكام ، ولكن الفضل بن الربيع يهمله ويسىء إليه فينضم الرجل إلى الحزب الفارسى طمعًا فى أن يستطيع إنقاذ الأمين من سيف طاهر بن الحسين الفارسى وهو قائد المأمون . ويدخل جند المأمون بغداد ويأخذ هرثمة بن أعين الأمين ، ويحميه ويرجو أن يشفع له عند أخيه ، ولكن طاهر بن الحسين يأمر رجاله فيخطفون الأمين ويقتلونه ويرسلون برأسه إلى أخيه المأمون ، وكل هذه أعمال خارجة عن الإسلام والإنسانية والكرامة ، وجمهور الناس يرى ذلك كله ويتأكد أن هذه الدولة لا يمكن أن تكون دولة الإسلام ، وماذا فعل فرعون وهامان أسوأ من ذلك ليستحقا لعنة الله ؟

والمأمون يدخل بغداد بعد ست سنوات من انتصاره ، يدخلها بعد حصار وهو يشعر أن أهلها يعادونه وتكون له هو الآخر فى الظلم والعدوان على الدماء والأموال حكايات سود ، ولا يشفع له فى هذا أنه كان عالمًا ذكيًا متفتح الذهن ، فهذا شىء آخر والأمة لا تريد من حاكمها إلا الإسلام والعدل والشريعة أى القانون .

وسأضرب لك مثالين - من كثير جدًا - من خروج المأمون على أبسط قواعد العدالة والشرع فى الإسلام ، فإن عبد الله المأمون فيما يقال وجد أن آل على أولى بالخلافة من بنى العباس . فقرر أن يجعل ولاية العهد فى رجل من أئمة العلويين هو على بن موسى الرضا بن الإمام جعفر الصادق ، وعلىّ هذا كان رجلاً بعيدًا عن السياسة قد يئس منها مثله فى ذلك مثل أبيه موسى الرضا وجده جعفر الصادق فاستدناه المأمون وأكرمه وبايعه بولاية العهد ، والرجل كاره لذلك خائف من بنى العباس يريد المأمون أن يزيده اطمئنانًا فيزوجه من ابنته أم حبيبة ، ويزوج ابنة أخرى له وهى أم الفضل من محمد ابن على بن موسى الرضا (وكلتا البنتين كانتا صبيتين فى حوالى الثمانية من العمر) ! والزواج عقد ولكنه لم يتم ؛ لأن الأمر كله كان خداعاً ، ويأمر المأمون فيكتب اسم ولى العهد العلوى على الدراهم والدنانير ويأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر ، وبعد ذلك

كله يدس لعلى بن موسى الرضا السم ويقتله ظلماً وعدواناً دون جريرة ويعصف ببقية العلويين الذين استأمنوا له ، ففى أية دولة نحن ؟ وبأى شريعة نحكم ؟

وبعد ذلك يتزوج المأمون من بوران ابنة الحسن أخى وزيره الفضل بن سهل ، والذى لا يعرفه الناس أن بوران هذه كانت طفلة فى الرابعة من عمرها ! وهذا الإعذار أو الزفاف البورانى المشهور كان كله خدعة ، وتغطية لجريمة كبيرة هى قتله وزيره الفضل بن سهل زعيم الحزب الفارسى أخى الحسن بن سهل والد بوران ، ثم انظر إلى الإسراف فى التصرف فى أموال المسلمين فى ذلك الإعذار أو الزفاف : لقد صنع الحسن بن سهل كرات صغيرة من العنبر وجعل داخل كل كرة ورقة فيها اسم ضيعة من الضياع ثم نثرها على الناس فمن وقعت بيده كرة كانت له الضيعة بما فيها ، ومن مال من أخذ الحسن بن سهل هذه الضياع ؟ من مال المسلمين ! ويقولون : إن المأمون لامه فى هذا ونسبه إلى الإسراف ولتسأل المأمون : وكيف تأذن بأن يعبث رجالك بأموال الناس على هذه الصورة فى حكمك ؟ والجواب : إن هذا كله كان يتم برضا المأمون ، لأن الدولة كانت بالفعل قد فقدت أهليتها للولاية على أمور المسلمين . فهذا الإسراف كله الذى يصل إلى أن يفرش الحسن للمأمون حصيرًا منسوجًا من الذهب وينثر عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ فلما رآه المأمون قال : قاتل الله أبا نواس ! كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

والبيت قاله أبو نواس فى الخمر (ابن خلكان ١ / ٧٢) وفى هذا العصر بالذات كان الفقراء يموتون من الجوع ، واقرأ البخلاء والبيان والتبيين للجاحظ ، وتاريخ الطبرى لترى كيف كان الفقراء يطعمون أولادهم النوى ، ويرقد بعضهم على البيض ليفقس .. وفى عصر المأمون كانت ثورة الزُّطِّ ، وهم مسلمون فقراء من الهنود كانوا يأتون بهم إلى جنوب العراق ليكسحوا الأوساخ ، وينظفوا الترع فإذا قاموا بعملهم طردوهم دون طعام أو مأوى ، فكانوا يتجمعون فى المستنقعات والأخوار ويسطون على أموال الناس وبدلاً من أن ينظر الحكام فى إصلاح حالهم أو يطلبوا من الأغنياء أن يعدلوا معهم كانوا يرسلون الجند ليقتلوهم ، ولنفس هذه الأسباب قامت ثورة الزنج أيام الخليفة المعتمد ، وبدلاً من أن يعطوهم حقوقهم ظلوا يحاربونهم أربعة عشر عاماً حتى أفنوهم .

هذا كله كان يراه أتقياء الفقهاء ويتعجبون . كانوا يقبلون على تدارس القرآن

والحديث ويجتهدون فى التشريع للناس ويعملون على هدايتهم إلى سواء السبيل تاركين دولة الظلم تفعل بنفسها وبأهلها ما تشاء ، وفى مجالس الفقهاء ينتقد الناس الدولة ورجالها والأخبار تصل إلى المأمون ورجاله يحسون أنهم ليسوا سادة هذه الأمة ؛ لأن سيادة الأمة ينبغى أن تقوم على احترام الدين والشرع وكرامات الناس ، ويتبرأون من أفاعيل الخلفاء ، وهل هناك أوقح أو أقبح من أن المأمون دس رجالاً فقتلوا وزيره الفضل بن سهل فى الحمام ؟! فلما قبض الناس عليهم قالوا للمأمون : أنت أمرتنا . فقال : أنا أقتلكم بإقراركم أما ما ادعيتموه علىّ فليس لكم عليه بينة (رواه الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتاب أحمد بن حنبل ص ٣٤٠) .

وأحس المأمون أن سادة الأمة الحقيقيين هم أهل الفقه والعلم والصلاح ، ويهمس فى أذنه فقهاؤه وقضاته أمثال يحيى بن أكثم وبشر المريسى وثمامة بن أشرس بأنه لا بد أن يثبت أنه إمام هذه الأمة كلها ويقهر أولئك الذين يرفضون أن تتدخل الدولة فى شئون العقيدة والتشريع ويعتزون بكراماتهم وإيمانهم ويتجاهلون أمر الدولة كأنها لا تملك عليهم سيادة ، وفقهاء السلطان هؤلاء كانوا يستعملون السلطان للانتقام من كبار الأئمة ومعظمهم كانوا من أولئك المعتزلة الذين ذكرناهم ، ومن الحق أن نقرر أن كبار المعتزلة من رجال مدرسة البصرة أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبى الهذيل العلاف كانوا على جانب كبير من التقى والورع مع العلم والزهادة ، ولكن المتكلمين من مدرسة بغداد عاشوا فى كنف الدولة وأقروا مظالمها وارتضوا الخضوع لها باستثناء إبراهيم بن سيار النظام فقد كان صاحب دين وعقل وعلم ، وإن كان من أصحاب المأمون ، وإن الإنسان ليعجب كيف أن رجلاً فى مستوى النظام ينفق علمه فى الكلام فى مسائل دخيلة على طبيعة العقيدة الإسلامية مثل السؤال عما إذا كانت صفات الله جزءًا من ذاته أو أن القرآن قديم أو مخلوق ، ولكن لا شك فى أن رجالاً مثل أبى موسى المردار وثمامة بن أشرس وبشر بن المعتمر كانوا يشعرون أن الناس يزدرونهم ويشكون فى إيمانهم ويوجهون احترامهم كله إلى العلماء الصادقين من أمثال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأحمد بن زهير بن حرب .

فما زالوا يحرضون المأمون حتى أوقعوا فى ذهنه أن أئمة السنة يتحدونه واتخذوا مسألة خلق القرآن سلاحاً للمعركة ، والمسألة فى لبابها ليست بذات موضوع بالنسبة

للمسلم الذى يفهم دينه فإننا نقول : إن القرآن كلام الله ولا نسأل بعد ذلك إن كان مخلوقاً أم غير مخلوق ؛ لأننا إذا دخلنا مناطق الخلق والقدرة وذات الله وصفاته أقحمنا أنفسنا فى موضوعات من الغيب الذى انفرد به سبحانه وتعالى ، لأن الكون والخلق أضخم من أن يحيط عقل الإنسان بحدوده ، والإسلام أنقذ الإنسان من الضلال عندما نهاه عن الخوض فيما لا يحيط به ذهنه ولا يضيره عدم الإحاطة به فى شىء حقاً إن الاجتهاد فى العلم فريضة على كل مؤمن ولكن لا تتكلم قط إلا على قدر ما يصل إليه علمك ، فنحن نعرف اليوم كثيرًا جدًا من أسرار الأرض والمجموعة الشمسية ، ولكننا لا نعلم إلا القليل مما يقع خارج مجموعتنا ، فما معنى التساؤل والرجم بالغيب ؟ والقرآن أوحى إلى رسول الله ﷺ ليبلغه لنا لنعيش بما فيه من حكمة ونور ، ولا ينفعنا فى شىء ، ولا هو من شأننا أن نسأل : ولكن ما هى ماهية نور الله ؟ وهل هو نور مثل هذا الذى نراه أو نور آخر ؟ وما معنى أن نسأل : كيف يستوى الله على العرش ؟ وما شكل عرش الله ؟ وما صورة يد الله الواردة فى قوله تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ ؟ وما دمنا نقول : إن الله سبحانه ليس كمثله شىء فتكون يد الله ليس كمثلها يد وكرسى الله ليس كمثله كرسى مما نعرف وعين الله لا تشبهها عين نعرفها ، ويكفينا أن نتبع هدى القرآن وأن نأخذ بما فى الآيات المحكمات وندع المتشابهات وهذا كان موقف أحمد بن حنبل ، فقد كان متباعدًا عن هذه القضايا ويأمر أصحابه بتجنبها ، ويقول لمن يسأله فى هذا الموضوع : « اتق الله ولا ينبغى أن تنصب نفسك وتشتهر بالكلام . لو كان فى هذا خير لتقدمنا فيه الصحابة ، هذه كلها بدعة » وكان كثيرًا ما يقول : « من أحب الكلام لم يفلح ولا يئول أمرهم إلى خير » أو « والكلام ردىء لا يدعو إلى خير تجنبوا أهل الكلام وعليكم بالسنن ، وما كان عليه أهل العلم قبلكم فإنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض مع أهل البدع ، وإنما السلامة فى ترك هذا . لم نؤمر بالكلام والخصومات » .

وكان الخليفة المأمون يشعر منذ دخل بغداد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، أن أهل البلد وعامتهم لا يوقرونه كما يجب ، وأن قلوبهم كلها مع أهل العلم ممن لا يفرقون بين كبير وصغير وينشرون علمهم فى الناس كافة ، وكان مجلس أحمد بن حنبل يحفل بالناس والكثير منهم من العوام أقبلوا ليستمعوا إليه ، وسواء فهموا عنه أو لم يفهموا فهم يتعظون بالقدوة وينتفعون برؤية رجل كهذا لا نظير له فى الدنيا علماً وفقهاً وجاهاً ومع ذلك فإنه يجلس إلى غيره من العلماء ويسمع منهم ويبلغ من تواضعه أنه استحى مرة

أن يجلس على حصير وهو يسمع حديث رسول الله ﷺ فرفعه وجلس على الأرض ، وكان يجلس فى بيته على لبد قديم رخيص ، ويلبس الثياب الغلاظ مما يشترى بدينار أو نحوه ، وكان مع ذلك فى الغاية من النظافة وحسن السمت ، وكان إذا رأى اليتيم الفقير أخذه وجعل بعض أصحابه يغسله ويشترى له ثياباً جددًا ويعطيه دراهم وحلوى ويطلب إليه أن يأتيه إذا حاجه أمر ، ووقعت فى بغداد مجاعة فامتنع أحمد عن الطعام إلا ما يقيم الأود ، وسئل فى هذا فقال : نجوع إذا جاع الناس ونطعم إذا طعم الناس . وكان الرجل أسمر شديد السمرة أميل إلى الطول وكان حسن الوجه حسن الإشارة خفيض الصوت ، وفى الليالى الشاتية الباردة كان يحمل ما تيسر له من الأكسية إلى بيوت الفقراء ويبكى ويقول : أبكى على فقراء أمة محمد فأين هذا من قول ثمامة بن أشرس فى مجلس المأمون : « وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها » وقد سواها الله بالأنعام فقال : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سبيلاً** ﴾ (الفرقان ٢٥ / ٤٤) أحمد أمين (ضحى الإسلام ٣ / ١٥٢) وهو هنا مدلس ؛ لأن الله سبحانه قال هذا الكلام فى كبار كفار قريش وكانوا سراة الناس !

ولكن هذا الكلام كان يعجب المأمون ، لأنه هو بدوره كان موتورًا من عامة الناس الذين رفضوا أن يفتحوا له أبواب مدينتهم عندما أقبل من خراسان ، وإذا كان هذا الموقف من العامة يصدر عن سخافة الفكر عند رجل مثل ثمامة بن أشرس ، فقد كان يصدر عن موقف سياسى عند المأمون ، وعندما يتوفى القاضى يحيى بن أكثم ويتولى قضاء بغداد أحمد بن أبى دُوَاد وكان من كبار المعتزلة ، ويأنس منه المأمون استعدادًا لمؤازرته على بسط سلطانه على جمهور الناس وأئمة المسلمين يكشف عن وجهه ، وتخرج المسألة عن نطاق الدين وتصبح سياسية خلاصتها : من صاحب الأمر فى دولة الإسلام ؟ الأمة وقادة الأمة أم الخليفة ورجاله ؟ الكتاب أم السيف ؟

إذن فمسألة خلق القرآن فى حقيقتها مسألة سياسية وهذا هو وجهها الذى خفى عن الكثيرين .

والخليفة المأمون عندما دخل فى المسألة دخلها على أنها مسألة سياسة وسيادة ، فهو الخليفة وصاحب السيادة على هذه الدولة وكل ما فيها ومن فيها ، وهو الذى يهيمن

على شئون الدين والدنيا ، وهو الشرع وممثل الشرع ، وليس من حق أحد من الرعية أن يشرع أو يفتى إلا بإذنه .

وأحمد بن حنبل عندما قبل التحدى وخاض المعركة فى مواجهة الخليفة كان يعرف أنها مسألة شريعة ، وخاضها على هذا الأساس وإن كان هو نفسه بعيدًا عن السياسة ، ولكن المسألة هنا مسألة سيادة القانون أو الشرع ، والشرع هو سيد كل ما فى هذه الدولة ابتداء من الخليفة ، والشرع أمانة عند أهل العلم والفقه ومسئوليتهم هنا كاملة ولا شك فيها ، والخليفة ـــ فى نظر الشرع ـ واحد من الرعية ، وسلطانه لا يجوز أن يتخطى الشريعة .

هذا الوضع الضخم للمسألة هو الذى يعطينا حجمها ، وأحمد بن حنبل هو الذى أعطاها هذا الحجم ، وكل المشاكل تأخذ أحجامها من رجالها وابن حنبل كان رجلاً ضخماً كالجبل ، كان ممثل الشرع والحق ورجل الأمة وبهذا الوضع خاض المعركة . السيادة على هذه الدنيا لله وشريعة الله والحق والعدل وليست للمأمون أو الدولة ، هنا لا تراجع ولا تردد ولا مساومة ، والموت هو أهون ما يتعرض له صاحب الفكر والرأى فى هذه الحالة ، وهذا كان مبدأ أحمد بن حنبل ولو أنه أحنى رأسه لكان له ألف عذر ، ولا بأس على المؤمن إذا خاف على حياته أن يتقى سيف الجبار بكلمة أو بانحناءة رأس ، وقد التمس رسول الله ﷺ العذر لبعض المستضعفين فى الأرض عندما تلفظوا بشىء يرحمهم من العذاب .

ولكن أحمد بن حنبل لم يكن مستضعفاً فى الأرض لكى يشترى سلامة نفسه بالتفريط فيما رأى أنه واجبه نحو الله والأمة ، فظل مكانه كالصخرة العاتية وأعز الدين والشرع والأمة بهذه الوقفة وبها أيضاً أصبح أحمد بن حنبل هو الإمام الأعظم ، وعظماء الرجال يحددون مكانهم بأنفسهم ولهذا فهم يصنعون التاريخ .

ولكى تلمس بيدك الوضع الحقيقى للمسألة ـ وهو سياسى كما قلت ـ أورد لك مقتطفات من البيان الذى أذاعه الخليفة المأمون معلناً فيه الحرب على أئمة السنة وداعياً إياهم إلى الخضوع لإرادته :

« أما بعد . فمن حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه وحملهم رعاية خلقه وإمضاء حكمه وسنته والائتمام بعدله فى بريته ، أن

يجهدوا لله أنفسهم وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى ، بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ويقفوهم على حدود إيمانهم (أحمد زكى صفوت ، جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٢ ــ ٤٧) وهكذا يجعل المأمون نفسه راعياً للدين ، وصياً على الإيمان ، مسئولاً عن الإسلام ، وهو بهذا يريد أن ينتزع لنفسه حقًا أباه عليه وعلى أسلافه أهل العلم والفقه ، فإن الخليفة عندهم سيد فى أمور الدنيا فهى فانية لا تساوى عند الله شيئاً ولكنه ليس إمام الأمة ولا راعى الدين ولا المؤتمن على العقيدة فقد خرج الخلفاء بتصرفاتهم على الدين والمنهج والحق والعدل من زمن بعيد .

ثم يدخل المأمون فى صميم الموضوع ويقول : « مما تبينه أمير المؤمنين برويته وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع إليه الدين من وكفه (الوكف : العيب والإثم والضرر) ما ينال المسلمين من القول فى القرآن الذى جعله الله إمامًا لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد ﷺ باقياً لهم واشتباهه على كثيرين منهم حتى حسن عندهم وتزين فى عقولهم ألا يكون مخلوقًا ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان به عن خلقه » .

ثم يتهمهم بعد ذلك بالجهل والكفر لكى يستحل بذلك دماءهم : « وقد عظم هؤلاء الجهلة ــ بقولهم فى القرآن ــ الثلم (الانكسار) فى دينهم والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله بالصفة التى هى لله وحده وشبهوه به ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظاً فى الدين ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قولهم ولا حكاية ، ولا تولية لشىء فى أمور الرعية » ، ثم يجىء بعد ذلك قرار الخليفة بامتحان القضاة والفقهاء على أساس القول بخلق القرآن فمن أقر بذلك منهم ترك فى وظيفته وحاله ، ومن رفض أخرج من عمله وأنزل به العقاب (اقرأ بقية البيان فى جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٢ ـ ٤٧) .

هذا هو البيان الذى أذاعه المأمون وهو فى الغالب من تحرير أحمد بن أبى دُوَاد كبير القضاة وصاحب الكلمة المسموعة عند المأمون وهو من كبار المعتزلة ، وكان رجلاً عظيم

المهابة واسع السلطان وهو عربى من أياد ، وقد ولد فى قنسرين جنوبى حلب ، وكان عالما بليغًا واسع المروءة بعيد الهمة يتعصب للعرب ، ولكنه كان أولاً وقبل كل شىء يتعصب لنفسه فهو كبير القضاة وعالم الدولة وصاحب رأى السلطان فكيف يزعم أحمد بن حنبل وأمثاله أن لهم كلمة فى الدين فوق كلمته ؟ (انظر ابن خلكان ١ / ٣ ، وأحمد أمين ، ضحى الإسلام ٣ / ١٥٥ وما بعدها ، وعبد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ٣٧٩ وما بعدها) .

وبدأ رجال الدولة وفقهاؤها فى امتحان الفقهاء وكان ذلك سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، وكان المأمون فى دمشق ثم مضى إلى طرسوس لأنه كان معسكرا على حدود دولة الروم وطلب أحمد بن أبى دُاوَد إلى نائبه فى بغداد إسحاق بن إبراهيم (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م) وهو فارسى الأصل عربى خزاعى بالولاء بأن يرسل إليه محمد بن سعد (كاتب الواقدى) ويزيد بن هارون ويحيى بن معين وأبا خيثمة زهير بن حرب (ت ٢٣٤ هـ / ٨٤٩ م) وكان من أكابر أئمة الحديث ومن أكابر أصحاب أحمد بن حنبل ونفرًا اخر فامتحنوا وأجابوا جميعًا بخلق القرآن وأحنوا هامتهم للسلطان .

إلا أحمد بن حنبل لأن ، المسألة إذا كانت فى نظر المأمون وقاضيه مسألة دولة (كما يقول الأستاذ الجندى) فهى فى نظر أحمد بن حنبل مسألة دين وأمة ، وهنا لابد من الوقفة الصلبة والإرادة والعزيمة .

ومعظم الفقهاء سلموا خوفًا من السيف إلا أحمد بن حنبل وصديق له هو محمد ابن نوح فوضعت فى أيديهما قيود حديدية وأرسلا إلى طرسوس ليلقيا العذاب والعقاب ، وعندما عبر الجند بهما الفرات عند الرقة لقيهما الفقيه أبو جعفر الأنبارى ، فقال له أحمد : يا أبا جعفر تعنيت (أتعبت نفسك) .

قال : ليس هذا عناء ، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله . ومع ذلك فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم بشىء فجعل أحمد يقول : ما شاء الله . ما شاء الله .

وفى ١٨ رجب ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م وقف الرجلان على أبواب طرسوس على حدود دولة الروم فى تركيا الحالية وعندما دخلا أذنة (فى تركيا) وكان المأمون معسكرًا فيها ، مات المأمون ، مات فى الثامنة والأربعين من عمره كما مات أبوه الرشيد فى تلك السن

وعادوا بهما إلى الرقة (فى العراق) وهناك مات محمد بن نوح لشدة ما لقى من الأغلال والحبس والركوب على الخيل دون سرج أو قتب ، وقبل موته قال لأحمد : يا أبا عبد الله : أنت أنت ! إنك لست مثلى أنت رجل يقتدى به وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله .

وتولى بعد المأمون أخوه أبو إسحاق المعتصم ، وكان شاباً عسكرياً لا شأن له بالفكر ، ولكن المأمون أوصاه بأن يطيع أحمد بن أبى دُواد ويستمر فى امتحان الفقهاء فسار فى طريق أخيه بصورة أعنف وأشد .

ويظل أحمد بن حنبل فى الحبس والقيد إلى سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م ، وبعض أحبائه يطلبون إليه أن يجيبهم إلى ما يطلبون تقية فكان يقول : « إذا سكت العالم تقية والجاهل يجهل فمتى يظهر الحق ؟ ثم يقول : ما أبالى بالحبس ما هو ومنزلى إلا واحد ولا قتلاً بالسيف ، إنما أخاف فتنة السوط وأخاف ألا أصبر » ، فهو هنا رجل لا يتشدق بالبطولة ولكنه مؤمن صريح واضح صابر .

وفى السجن يعيش الإمام العظيم مع غيره من السجناء ، ويتحول السجن إلى مصلى ومسجد والإمام أحمد ـ فى انتظار الموت ـ يؤم الناس فى الصلاة ويلقى عليهم الدروس ويقول له واحد منهم : لا عليك يا أبا عبد الله فما هما إلا سوطان ثم لا تدرى أين يقع الباقى ! ثم حولوه إلى سجن انفرادى وسجنوه فى دار إسحاق بن إبراهيم والى بغداد وجعل هذا يرسل إليه ويخوفه ويقول : يا أحمد إنها والله نفسك إنه لا يقتلك إلا بالسيف إنه ـ الخليفة المعتصم ـ قد آل على نفسه إن لم تجبه أن يضربك ضرباً بعد ضرب وأن يلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس .

وبعد أيام حملوه إلى مجلس المعتصم وكان شاباً فى الأربعين وقد أصر على إذلال الإمام أو قتله وأحمد كان فى السادسة والخمسين من عمره ، شيخًا عظيمًا شديد السمرة شابَ معظم شعره وهو يقف فى قيوده رافع الرأس عليه ثوب أبيض بالغ النظافة وكان أحمد حريصًا دائمًا على نظافة ثوبه وجسده وشعره وكل هيئته .

وفى مجلس المحاكمة حاولوا أن يثنوه عن عزمه فأبى والخليفة كان يتجنب إيقاع العذاب بالفقيه العظيم ، ولكن أحمد بن أبى دُوَاد يقول : يا أمير المؤمنين . ما هو والله إلا ضال مبتدع !

وتتابع الحاضرون يسبونه والخليفة يهاب الإمام ويطلب إلى رجاله مناظرة الإمام والإمام يلزمهم الحجة بعد الحجة ولكنهم فى ضلال ، ويقول الخليفة : « وألله لئن أجابنى لأطلقن القيد عنه بيدى ولأركبن إليه بجندى ولأطأن عقبه (أى أسير خلفه) ثم يقول : يا أحمد إنى والله عليك لشفيق وإنى لأشفق عليك شفقتى على هارون ابنى ما تقول ؟ ويقول أحمد : أعطونى شيئًا من كتاب ألله .

وعاد الخليفة يقول : يا أحمد ، أجبنى إلى شىء فيه أدنى فرج لك حتى أطلق عنك بيدى .

ويجيب أحمد : أعطونى شيئًا من كتاب الله .

وبلغت المحنة ذروتها فى رمضان سنة ٢٢٠ هـ وأحمد صائم وقد هد السجن والحديد كيانه وعندما تأكد أن العذاب والقتل يكون غدًا طلب خيطًا شد به قيده وأصلح سراويله حتى لا يتعرى إذا أصابه أذى .

وفى الصبح أدخل على الخليفة فى قيوده ولما يئس منه الخليفة قال : عليك اللعنة خذوه واسحبوه وخلعوه ! وعلقوه بذراعيه على خشبة وعروا ظهره وضربوه بالسياط فأغمى عليه ووقع وداسوه بأقدامهم ولما أفاق أتوه بسويق فأبى أن يفطر والوقت كان رمضان وقام فصلى فقال له بعضهم : صليت والدم يسيل فى ثوبك فقال : قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً .

وأمة الإسلام كلها كانت تتطلع إلى أحمد ، ذهب الفقيه الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام يستطلع الخبر وجعل يقول : أيضرب سيدنا ؟ وبشر الحافى الصوفى يقول : إن كان أجاب فأنا أدخل فأقوم مقامه فخرج رجل يقول لم يجبهم فحمد الله وأخرجوه من العذاب وقيل له : ادع على ظالمك فقال : ليس على الصابر من دعاء على الظالم . وقبل أن يخرج جعل الخليفة فى حل أى عفا عنه .

لقد طالما حدثوك عن موقف سقراط أمام المحنة والموت فهذا أعظم من سقراط !

ثبت للمحنة ونصر الدين وهزم الدولة ، لقد عفا عن الخليفة لأنه حاكم جبار ، ولكنه لم يغفر أبدًا لأصحابه العلماء من أمثال يحيى بن معين وأحمد بن زهير بن حرب ، وفى سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م مات الخليفة المعتصم وخلفه المتوكل فأبطل المحنة وتوفى أحمد فى ربيع الأول ٢٤١ هـ / يوليو ٨٥٥ م عن ثمان وسبعين سنة .

البِدَايَـــةُ العَظِيمَــةُ
أصْبَــحَتْ نِـهَـايَةً أَلِيمَـةً

كانت مسألة خلق القرآن ومحنة أهل السنة ـ وعلى رأسهم هنا أحمد بن حنبل ـ فى صميمها مسألة سياسية ، والصراع فيها كان صراعًا سياسيًا خلاصته أو محوره : من صاحب الأمر فى دولـة الإسلام ؟ . الخليفة رأس النظام السياسى القـائم ، قائد جيوش الأمة ومـالك أموالها جميعًا : مـا فى خزائن الدولـة وما فى أيدى النـاس ، وصاحب الحق المطلق فى دماء النـاس ؟ . فله الحق المسلم به ـ بصفتـه الخليفة ورأس الأمة. أم العلماء والفقهاء فهم الـذين يعرفون الكتاب والسنـة حق المعرفة ؟. ومن هنـا فهم أعلم الناس بشريعة الله ، وهى القانون الأعلى الذى ينبغى أن يحكم كل شىء. وكل تصرف للناس فى بلاد الإسلام وهم القضاة الذين يفصلون فى خصومات الناس ، وهم أصحاب الفتوى الذين يستفتيهم الناس فيما أهمهم من شئون الدنيا والدين ؟

والخليفة المأمـون (المحرم ١٩٨ ــ ١٦ رجب ٢١٨ هــ ، سـبتمبر ٨١٣ ــ مارس ٨٣٣ م) فى بيانه الذى أتينا بأطراف منه فى الفصل الماضى يريد أن ينتزع لنفسه إمامة الدين والدنيا ويريد تجريد أهل العلم والفقه من كل سلطة ومكانة ، فهو يقول : أما بعد فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عباده الـذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسننتـه ، والائتمام بعدله فى بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحـوا له فيما استحفظهم وقلـدهم ؛ ويدلـوا عليه تبـارك اسمه وتعـالى بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ويهدوا إليه من زاغ عنه ..

وهـذا كـلام واضح لا لبس فيه . وقـد فهمـه فقهـاء السنة على وجهـه وحقيقتـه فرفضوه ونهضوا يعارضون السلطان ، وعندما أمر المأمون فى نهاية بيانه كبير قضاته ونائبـه فى بغداد أن يبدأ بامتحـان العلماء والفقهاء فى مسألة القول بخلق القـرآن . كان ذلك فى حقيقتـه إنذارًا لهم جميعًـا بضرورة التسليم بأن الخليفة هـو صاحب الأمـر فى شئون الـدين كما هو صاحبه فى شئـون الدنيا ، أما القـول بخلق القرآن أو رفض ذلك القول فمجرد ذريعة أو نقطة اختبار ، فالتسليم بأن القرآن مخلوق معناه ـ فى الحقيقة ـ التسليم بحق الخليفة فى التشريع والقضاء والتنفيذ بلا معقب .

وأحمد بن حنبل وأضرابه ممن رفضوا القول بخلق القرآن كانوا يفهمون ذلك تماماً ، ويعرفون أنهم إذا رفضوا دعوى الخليفة كانوا خارجين عليه وعلى سلطانه ، ومن حقه فى هذه الحالة أن يعزل أو يسجن أو يعذب أو يقتل منهم من يريد ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من العصاة . وأحمد بن حنبل ومعاصروه من أئمة السنة يقفون بذلك على قمة مسيرة فكرية أساسية أشرنا إليها مرة أخرى فى هذه الدراسة ، وهى إنكار أهل العلم لأى حق للدولة فى التدخل فى شئون العقيدة أو الشريعة ، وإذا كان ولى الأمر هو الذى يعين القضاة ، فإن تعيينه إياهم ممارسة لحق إدارى ، لأن أعوان السلطان هم الذين يتولون تنفيذ أحكام القضاة ، ولا يمكن للقاضى أن يأمر رجال التنفيذ بتنفيذ أحكامه إلا إذا سبق هذا أمر بتعيينه قاضياً من رئيس السلطة التنفيذية ، إن أمر التعيين هنا ممارسة لحق إدارى تنفيذى ، ولكنه ليس ممارسة لحق سيادة ، فلا سيادة للخليفة أو السلطان على الدين والعلم والفقه والتشريع وأحكام القضاة . فهنا مجال سيادة أخرى هى سيادة الشرع والقانون ، والأمة ــ لا الخليفة ــ هى الوصية على الشرع الحفيظة على دين الله منذ قيام خلافة بنى أمية سنة ٤٠ هـ/ ٦٦١ م . فهى فى نظر الأمة إمامة باطلة قامت على رغم الأمة وعلى خلاف شرع الله ، واقترف خلفاء بنى أمية كل الموبقات التى نهى عنها الإسلام ، فلم يعودوا بذلك أمناء على شرع الله ولا على أمة الإسلام ، وانفصلت الأمة والدين عن الدولة وأصحابها ، وسار كل منهما فى طريق .

***

وعندما قامت دولة العباسيين زعم داود بن على عم عبد الله السفاح فى خطابه الأول فى الكوفة أن دولتهم أتت بشريعة الله ! : « لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسول الله ، وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى الخاصة والعامة منكم بسيرة رسول الله ﷺ » ثم لم يلبث هو وآله أن أغرقوا الدنيا فى المقاتل والدماء ، وتعدوا حدود الله على ما بينا فى أكثر من موضع من هذه الدراسة ، واستمرت القطيعة بين الأمة والدولة بل اتسعت ، وزاد التفاف الناس حول الأئمة ، وشعر خلفاء بنى العباس بأن أمر الأمة يخرج من أيديهم ؛ فمضوا يتحينون الفرص لانتزاع السيادة الشرعية من أيدى الفقهاء ، حتى إذا جاءت قضية خلق القرآن اتخذوها ذريعة لانتزاع هذه السيادة ، فلم يوفقوا ؛ لأن أحمد بن حنبل وأضرابه وقفوا لهم هذا

الموقف الصلب ، وثبتوا للمحنة ، ولم يسلموا للخلفاء بذلك الحق ، والفقهاء فى هذا الصراع كانوا أقوى من الدولة ؛ لأن الأمة وقفت معهم ومات فى المحنة من مات ، وضرب أحمد بن حنبل بالسياط ، فلم يستسلم ، وأصبح بثباته رمزًا على تمسك الأمة بالحق وشريعة الله فى وجه الطغيان ، وقد رأينا تقدير العلماء لهذا النفر من علمائهم لثباتهم فى الدفاع عن شرع الله وحق الأمة فيه ، وتصديهم للخلفاء ورجالهم وإزرائهم بالمعتزلة والمتكلمين الذين احتقروا الأمة ، ونظروا إليها نظراتهم إلى البهائم كما رأيت في بعض ما أوردنا من كلامهم ، وخاصة الجاحظ وبشر المريسى وأضرابهما .

وقد رأينا حماسة الناس لأحمد بن حنبل ووقوفهم إلى جانبه أيام المحنة ، لأنهم أحسوا أن القضية قضيتهم ، وأن هذا الرجل إذا لم يحنِ هامته لهم فقد انتصر وانتصروا معه ، فإن جمهور الناس كانوا موتورين من ظلم بنى العباس وعبثهم بالأموال والدماء والحقوق والكرامات ، تواقين إلى من ينصرهم عليهم ؛ فجعلوا عندما سيق أحمد بن حنبل للعذاب يتنسمون الأخبار ويسألون : هل أجابهم ؟ فإذا قيل لهم : لا لم يجبهم طربوا وحمدوا الله ، حتى إذا انتهت محنة الرجل أحسوا أنهم انتصروا على السلطان بانتصار أحمد بن حنبل عليه ، وأصبح هذا الانتصار رمزًا عندهم على سيادة الأمة وسيادة شرع الله .

ورفعوا أحمد بن حنبل إلى مكان لم يرفعوا إلى مثله فقيهًا على كثرة ما عرفوا من أجلاء الفقهاء من أمثال سعيد بن المسيب وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة وأبى حنيفة النعمان بن ثابت ، ومالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعى .

وأنت تفهم من موقف الأمة هذا أنها ليست بالجهل الذى تصور المترفعون عليها من أهل الفكر والعلم الذين ذكرناهم ، فها هى ذى تعرف من حقائق الصراع الدائر أكثر مما عرف محمد بن سعد كاتب الواقدى ، ويحيى بن معين ، وأحمد بن زهير بن حرب ابن أبى خيثمة ، فقد سلَّم هؤلاء للمأمون بما أراد حاسبين أنها قضية فقهية عادية يجوز للعالم أن يخلص نفسه من عذابها بالتسليم الظاهر لصاحب السلطان .

وفى القلب ما فيه ، والله سبحانه أعلم بما فى القلوب ، فأنجوا أنفسهم من العقاب وفاتهم المعنى البعيد الذى فهمته الأمة عندما وقفت مع أحمد بن حنبل ، فهى قضية حق وعدالة وشريعة وأمة ، ولهذا أصبح أحمد بن حنبل هو الإمام عندهم ولا إمام غيره ، ولا

يحسبن القارىء أن محمد بن سعد أو أحمد بن زهير بن حرب ويحيى بن معين لم يكونوا من أجلاء الفقهاء ، فقد كانوا فعلاً ممن تفخر بهم هذه الأمة علمًا ودينًا وصدقًا وفضلاً ، ولكن هناك مواقف تتطلب من الناس فوق العلم والفضل : الفهم لمعنى الموقف ومغزاه ، وأحمد بن حنبل كان على مستوى الموقف ، والأمة كانت على مستوى الموقف ، ويخطىء كل الخطأ من يستصغر الأمة أو ينظر إليها نظرته إلى الجاهل الذى لا يفهم . فالأمم بطبعها تحس بالحق وتعرف الحق وتميز بالإحساس الفطرى بين من يحبونها ويخلصون لها ومن لا يؤمنون بها ، ففى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ذهب سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وقابلوا المندوب السامى البريطانى فى مصر وهو السير ريجنالد وينجت وحدثوه فى أمر حق مصر فى الاستقلال فاستصغر الرجل شأنهم وشأن مصر ورد عليهم رداً يفهم منه ذلك ، فأما عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى فقد اكتفيا بذلك ، وأما سعد زغلول فقد أثبت بعد قليل أنه رجل الموقف والمؤهل للمطالبة بحق الشعب المصرى . ففى ٧ فبراير ١٩١٩ حضر سعد زغلول باشا مع نفر من كبراء مصر من أمثال عبد الخالق ثروت باشا محاضرة فى دار جمعية الاقتصاد والتشريع ألقاها قاض بريطانى يسمى برسيفال وقدم بها مشروع قانون للعقوبات وضعته لجنة كانت تسمى لجنة الامتيازات الأجنبية ، فوقف سعد زغلول بعد المحاضرة وقال كلمة تعليق عليها ختمها بقوله : « فى سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا حمايتها (على مصر) من تلقاء نفسها بدون أن نطلبها أو تقبلها الأمة المصرية فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونًا ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » . فدوت هذه الكلمة فى أرجاء مصر كلها ، وكانت الشرارة التى أشعلت ثورة ١٩١٩ ، وبها وبما تلاها من أعمال الإقدام والشجاعة والحكمة تقدم سعد زغلول الصفوف وأصبح زعيم هذه الأمة ، وفهمت الأمة مغزى العبارة فهبت مستجيبة لسعد على بكرة أبيها ، فكأن هذه الأمة التى كان الباشوات والأمراء ينظرون لها على أنها أمة جاهلة كانت ـ رغم جهلها المزعوم هذا ـ أذكى وأصدق فهمًا وتقديرًا للموقف من بقية الباشوات والمثقفين ، ثم سارت بعد ذلك بثورتها يتقدمها سعد ومن انضم إليه فى مسيرتها الخالدة فى سبيل الحرية والاستقلال .

مثل هذا الشعور كانت أمة الإسلام تتبادل مع أحمد بن حنبل ، وكانت تلك الأمة تنتظر من ابن حنبل أن يواصل مسيرته معها ، وسنرى فيما بعد إن كان قد سار أم لم

يسر ، وإذا كان أحمد بن حنبل لم يقل إذ ذاك كلمة تعبر عن إدراكه الكامل لحقيقة الموقف ، مكتفيًا بالعمل دون القول وهذا أبلغ . فإن عالمًا مصريًا من تلاميذ الشافعى هو يوسف بن يحيى البويطى (ت سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م) عبَّر بأجلى بيان عن حقيقة الصراع قبل أن يموت فى سجنه ، فقد رفض أن يجيب بخلق القرآن فأخذته المحنة ، وألقى فى السجن مكبلاً بأغلال زنتها أربعون رطلاً من الحديد ، فيكتب من سجنه إلى الربيع بن سليمان المرادى زميله فى مشيخة الشافعية فى مصر يوصيه بالاستمرار فى التدريس مكانه ويقول :« إنه لتأتى علىَّ أوقات ما أحس بالحديد أنه على بدنى حتى تمسه يدى إنى لأرجو أن يجزى الله عز وجل أجر كل ممتنع فى هذه المسألة لسيدنا الذى فى بغداد » . « رواه عبد الحليم الجندى فى كتابه عن أحمد بن حنبل ص ٣٩٨ عن سيرة البويطى فى طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى » . وقد توفى البويطى فى سجنه مؤكدًا الحقيقة الخالدة من أن مصر موطن الشهداء .

لقد أثبت أحمد بن حنبل بموقفه من السلطان أنه أهل للموقف ، ولكن هل أثبت بعد ذلك أنه أهل للمسئولية التاريخية التى كان هذا الموقف يتطلبها منه ؟

لقد رأينا سعد زغلول يثبت بخطابه فى جمعية الاقتصاد والتشريع أنه أهل للموقف ، ولو أنه وقف عند هذا الخطاب لكان أهلاً للموقف غير أهل للمسئولية ، ولكن سعد زغلول عندما رأى الأمة تستجيب لصوته ألقى بنفسه فى المعركة وسار فى مقدمة الصفوف غير هياب فأثبت بذلك أنه أهل للموقف وأهل للمسئولية كذلك ، ودخل التاريخ على أنه رجل سياسة وحق وبلاغة وبسالة وقائد حركة تحرير كبرى ، وكان بهذا كله جديراً بأمته كما كانت هى جديرة به .

فماذا فعل أحمد بن حنبل للأمة التى علقت عليه الآمال ، ووقفت إلى جانبه واجفة ساهرة الليل أيام المحنة ؟

لقد انتهت المحنة فى ذى الحجة ٢٣٣ هـ / يوليو ٨٤٧ وخرج أحمد بن حنبل من سجنه وعاد إلى بيته ، وكانت سنه إذ ذاك ٦٩ سنة هجرية ، وبقيت له من سنوات العمر ثمانى سنوات فماذا فعل خلالها ؟.

لزم داره وواصل حياة الزهد والتقشف والتباعد عن السلطان مع أن الأمة كانت تطلب منه إذ ذاك الكثير ، فقد كانت أحوال الناس تسير من سيء إلى أسوأ ، والخليفة

المتوكل الـذى أبطل المحنة لم يفعل ذلك تقـى أو ورعًا ، بل حسب أنه يكسـب الرجل إلى جانبه ، وكان فى ذلك غافلاً أشد الغفلـة عن حقيقة الإمام العظيم كما كان فى غاية الغفلة عن كل ما حوله وكل ما كانت الخلافة تتطلب منه . لقد تولاها واسمه أبو الفضل جعفر ابن أبى جعفر هـارون الواثق بن إسحاق محمد المعتصم فى ٢٣ ذى الحجـة سنة ٢٣٢ هـ ومكث فى الخلافة خمس عشرة سنـة تقريبًا ـ إذ إنه توفى فى شـوال ٢٤٧ هـ / يناير ٨٦٢ م . وخلال هـذه الفترة ارتكب من الموبقـات والمظالم مـا فاق بـه سابقيـه . وهذه المساءات كلهـا كانت تقـع على كواهل النـاس ، والناس كـانوا فى أشد الحاجـة إلى رجل يقودهم للخلاص مما كانوا يعانون منه . لقد كانت وقفة أحمد بن حنبل من السلطان فى مسألة خلق القرآن بداية لحركة كان ينبغى أن تستمر حتى تؤتى ثمارها . وإذا كان هو قد كبرت سنه فإن أفكاره كـانت شابة ولا بد أنه كان فى تـلاميذه من يستطيع مواصلة النضال لو أنه طلب إليهم ذلك ، وقد كان من بين تلاميذه كثيرون جدًا مستعدين للسير فى الطريق ، وما كان على الرجل بعد أن وقف هذه الوقفة ووضع بها حدًا لتدهور شرعى وإنسانى طـويل ألا يخطو الخطوة الأولى فى الطـريق الصحيح فتستمر المسيرة ويتغير وجه التاريخ ؛ لأن أمة العرب والإسلام التى وقفت إلى جانب أحمد بن حنبل وأيدته ضد السلطان كانت أمة قـوية شابة وما زالت بخير بفضل حيوية العقيـدة الإسلامية وقوة الجيش العربى ، ولكن أحمد بن حنبل بعـد هذه الوقفـة استمر واقفًا مكانـه مكتفيًا بما تحمل من عـذاب السجن والسيـاط قـانعًا بما جنى فى مقـابل ذلك من المجـد . فكـانت النتيجة أن وقفته ظلت مجرد وقفـة رجل شجاع وانتهت عند هذا الحد ، بـل إن التدهور الخطير بدأ بعد ذلك ؛ لأن موقف الجمـود بعد الشروع فى المسير خذل الأمة وخيب آمالها فبـدأ اليأس يثقل عليها حتى شـل فكرهـا . وبعد الشلـل جاء الجهل فأكمل المأسـاة ، والحنبلية التى بدأت تلـك البداية العظيمة أصبحت شرًا مستطيرًا على الأمة وعـاملاً من أكبر عوامل إسراع الضعف إلى كيـانها ، وسأفصل لك ذلك على قدر ما يسمح بـه المجال وسآتيك بمقارنات من تجارب أمم أخرى تفتح أمامك مجالات للتفكير والتدبر فى أسباب تخلف هذه الأمـة ، لأن تخلفنا نسبى ، أى أننـا أصبحنا متخلفين بالنسبـة لغيرنا ممن سلكـوا غير مسلكنا ، والحقـائق تتكشف بالمقـارنـة بالنظـائر والأشباه وتتضح أكثـر بالمقابلة مع الأضداد والنقائض .

وقبل أن أدخل فى هذا التوجيه الجديد لموضوع أحمد بن حنبل أحب أن أعطيك فكرة عن حيوية أمة العروبة والإسلام فى نفس ذلك الوقت الذى وقف فيه أحمد بن حنبل بها فى بداية الطريق . وكما هى العادة آتيك بهذه الفكرة فى صورة شاهد حى من التاريخ ، فإننا لم نعرف أبدًا كيف نفيد من مواهب أمتنا التى جعلنا تاريخها سردًا مملاً لتواريخ الدول ووقفات عند أعلام صورناهم على أنهم مصابيح مضيئة وسط ظلام ، وما كان الذى حول هذه المصابيح بظلام قط ، وأمتنا كانت وما زالت عامرة بالخير والمواهب والقدرة على العطاء . وقد رأيت أن رجلاً مثل يحيى بن يوسف البويطى لم يقل ثباتًا ولا بسالة عن أحمد بن حنبل ، بل هو احتمل من التعذيب أضعاف ما احتمل أحمد بن حنبل ثم وهب ثواب ذلك كله له ، ثم مات فى سجنه عزيزاً راضيًا ، فوصل بالشهادة فى سبيل الرأى إلى منتهاها ، ومثل يحيى البويطى كثيرون ولكننا ننساهم لكى نقصر المجد كله على رجل واحد . والخبر التالى يدلك على أن عامة أمة الإسلام كانت من ناحية البسالة والإدراك والإحساس بالشخصية على مستوى لا يقل عن أحمد بن حنبل ، كما كانت الأمة المصرية على مستوى سعد زغلول . والفرق هنا أن سعد زغلول وقف الوقفة التى وضعت حدًا للاحتلال ثم سار فى مقدمة الركب فى طريق الاستقلال فتحولت كلمة ألقيت فى قاعة محاضرات إلى حركة قومية كبرى . أصبحت الوقفة بداية طريق فى حين أن وقفة أحمد بن حنبل تحولت إلى بداية ونهاية فى نفس الوقت ، بل أصبحت بداية لتدهور أشد كما سنرى .

وإليك الخبر الذى أريد سياقه لك وهو وارد عند الطبرى (حـ ٦ / ٥٠٢ وما بعدها) والأغانى (١٧ / ٥٤) والنويرى فى نهاية الإرب (٢٢ / ١٥٥ وما بعدها) فى حوادث سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م أيام هارون الرشيد أى فى نفس العصر الذى نتحدث عنه على وجه التقريب : أن الرشيد لما حصر هرقلة Heraclaa (وهى من بلاد الروم فى آسية الصغرى بعد مناطق الثغور الإسلامية فى الطريق إلى قونية) وألح عليهم بالمجانيق والسهام والعرادات ، فتح الباب ذات يوم ، فاستشرف المسلمون لذلك ، فإذا رجل من أهلها كأكمل الرجال قد خرج فى أكمل السلاح فنادى : قد طال مواقفتكم إيانا ، فليبرز إلىَّ منكم رجلان ، ثم لم يزل يزيد حتى بلغ عشرين فلم يجبه أحد فدخل وأغلق الباب ، وكان الرشيد نائمًا فلم يعلم بخبره إلا عند انصرافه ، فغضب ولام جنده وغلمانه

على تركهم إنباهه وتأسف لغوته فقيل له : إن الامتناع منه سيغريه ويطغيه ، وأحرى به أن يخرج فى غد ويطلب ما طلب .

فطالت على الرشيد ليلته ، وأصبح كالمنتظر له ، فإذا بالباب قد فتح ، وخرج الرجل طالبًا للبراز ، وذلك فى يوم شديد الحر ، فجعل يدعو أنه يثبت لعشرين منهم ، فقال الرشيد : من له ؟ فابتدره جلة القواد كهرثمة (بن أعين) ويزيد بن مزيد (الشيبانى) وعبد الله بن مالك وخزيمة بن خازم وأخيه عبد الله وداوود بن يزيد وأخيه ، فعزم على إخراج بعضهم فضج المطوعة حتى سمع ضجيجهم ، فأذن لعشرين منهم فقال قائلهم : يا أمير المؤمنين قوادك مشهورون بالنجدة والبأس وعلو الصوت ومدارسة الحرب ، ومتى خرج واحد منهم وقتل ذلك العلج (الرومى) لم يكبر ذلك ، وإن قتله العلج كان وصمة على العسكر قبيحة وثلمة لا تسد ، ونحن عامة ولم يرتفع لأحد منا صوت (صيت) إلا كما يصلح للعامة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يخلينا نختار رجلاً فنخرجه إليه ، فإن ظهر علم أهل الحصن أن أمير المؤمنين قد ظفر بأعزهم على يد رجل من العامة من أخفاء الناس (مجهول من بين عامة الناس) وإن قتل الرجل فإنما استشهد ، ولم يؤثر ذهابه فى العسكر ، ولم يثلمه (موت) رجل ، وخرج إليه بعده مثله حتى يقضى الله ما شاء . فقال الرشيد : قد استصوبت رأيكم هذا ، فاختاروا رجلاً يعرف بابن الجزرى ، وكان معروفًا فى الثغر بالبأس والنجدة فقال له الرشيد : أتخرج ؟ قال : نعم ! وأستعين بالله تعالى . فقال : أعطوه فرسًا ورمحًا وسيفًا وترسًا ! فقال : يا أمير المؤمنين أنا بفرسى أوثق ، ورمحى بيدى أشد ولكنى قد قبلت السيف والترس . فلبس سلاحه . واستدعاه الرشيد فودعه وأتبعه الدعاء وخرج معه عشرون من المطوعة ، فلما انقض (نزل) فى الوادى قال لهم العلج ـ وهو يعدهم واحدًا واحدًا ـ إنما كان الشرط عشرين وقد زدتم رجلاً ولكن لا بأس فنادوه : ليس يخرج إليك إلا رجل واحد ، فلما فصل منهم ابن الجزرى وقد أشرف (أطل) أكثر الناس من الحصن يتأملون صاحبهم والقرن (خصمه) وقرينه الذى سيبارزه من المسلمين فقال له الرومى : أتصدقنى عما أستخبرك ؟ قال : نعم . قال : أنت بالله ابن الجزرى ؟ قال : اللهم نعم ! فكر له (خرج له) ثم أخذا فى شأنهما فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما ، وكاد الفرسان يقومان وليس يخدش واحد منهما صاحبه ، ثم تحاجزا بشىء (أى استتر كل منهما عن صاحبه

بشيء) فزج كل منهما رمحه واحتضن سيفه فتجالدا مليًا واشتد عليهما الحر وتبلد الفرسان وجعل ابن الجزرى يضرب الضربة التى يرى أنه بلغ بها فيتقيها الرومى وكان ترسه من حديد ، ويضربه الرومى ضربة معزر (أى بكل ما عنده من قوة) فلما يئس كل واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابن الجزرى ، فدخلت المسلمين كآبة لم يكتئبوا مثلها قط ، إنما كانت هزيمته حيلة وعطعط المشركون اختيالاً وتطاولاً وإنما كانت هزيمته حيلة منه فاتبعه العلج وتمكن منه ابن الجزرى فرماه بوهق (ضربة سيف) فوقع فى عنقه فما أخطأه وركض فاستلبه عن فرسه فما وصل إلى الأرض حتى فارقه رأسه فكبر المسلمون أعلى تكبير وانخذل المشركون ، وبادروا الباب يغلقونه واتصل الخبر بالرشيد فصاح بالقواد : اجعلوا النار فى المجانيق . ففعلوا وجعلوا الكتان والنفط على الحجارة وأضرموا نارًا ورموا بها السور فكانت النار تلصق به وتأخذه الحجارة وقد تصدع وتهافت فلما أحاطت بهم النيران فتحوا الحصن مستأمنين ..

وصَبَّ الرشيد الأموال على ابن الجزرى وقوده (أى رفعه إلى مرتبة القيادة) فلم يقبل التقويد وسأل أن يعفى ويترك مكانه من الثغر فلم يزل به طول عمره .. وقد أتيت بهذا الخبر على تواليه حتى ترى بنفسك أن أمة العرب كانت لا تزال بخير ، فهذا رجل من العامة التى احتقرها أصحابنا أشد الاحتقار يثبت أنه أقدر وأثبت من كبار القواد ، وأصحاب ذلك الرجل أثبتوا أنهم أصحاب رأى حكيم ونظر سديد وحرص على صالح المسلمين شديد ، والمطوعة هم المتطوعون الذين يخرجون للجهاد فى سبيل الله ويقيمون فى الثغور درعاً لأمة الإسلام وهم لا يطلبون الأجر إلا من الله سبحانه ، فهم أصحاب إيمان حق وقد رأيت ابن الجزرى يرفض القيادة ويفضل أن يظل مجاهدًا فى سبيل الله ، ونحن إلى يومنا هذا نعرف أمتنا ونعرف أنها لم تخل ولا يمكن أن تخلو من الرجال ذوى الرأى والشهامة والنجدة والاحتساب وفى جيرتنا فى المدينة والقرية وفى أعمالنا فى الديوان أو المصنع أو الحقل أو الجامعة والمدرسة وبقية مناكب الحياة رجال كثيرون من أهل النجدة والشهامة وطيب الخلق والعفة والدين ،وهؤلاء هم الذين وقفوا إلى جانب ابن حنبل ونصروه ، وهؤلاء هم الذين رفعوه إلى مقام الإمامة العظمى وجعلوه بطلاً ، ولو ترك الأمر لأنداده من الفقهاء لخذله معظمهم وأسلموه ، وهؤلاء الرجال الصالحون من غمار الناس بالذات كانوا ينتظرون من ابن حنبل أكثر مما أعطى فإن الرجل كان

إيجابيًا متقدمًا الصفوف حتى انتهت المحنة فلما انتهت وقف مكانه وأصبح سلبيًا وقضى بقية عمره زاهدًا متقشفًا ورعًا اضطره المتوكل إلى المجيء إلى « سر من رأى » ليكون فى معيته فذهب ولكنه رفض أن يكون فى المعية وكان يقول : وماذا يريد هؤلاء منى ؟ (يريد الخليفة ورجاله) .

والجواب : أنهم كانوا يريدون أن يعتزوا به ويستروا بوجوده معهم عيوبهم ، ولكن الذين كانوا بحاجة إليه فعلاً كانوا جماهير أمة العروبة ، هؤلاء فعلاً كانوا فى حاجة إلى بطل يسير بهم لا إلى رمز يقف معهم ، ولو كان مصير أمة الإسلام متوقفاً على زاهد متقشف يقوم الليل ويصوم النهار لكان هذا المصير ظلاماً ويأساً كله ، وقد رأينا فى معابد رهبان البوذية فى هضاب التبت رجالاً على الكفر ولكن إيمانهم وتقشفهم وزهدهم فى الدنيا وحفظهم لكتب ديانتهم يروع القلوب ، ولكن الألوف منهم لم تخرج ببلاد التبت عن أن تكون صحراء جرداء ..

هل تذكر قصة مارتن لوثر الذى حدثتك عنه ؟ فهذا أيضاً رجل دين وقد خرج فى شجاعة وكتب احتجاجه على صكوك الغفران وعلى البابوية فأثار اهتمام الدنيا ولو أنه وقف عند هذا الاحتجاج وعاد إلى كنيسته وأقام يصلى ويتعبد لما تحرك فى الدنيا شىء ، ولما كانت هناك تلك الثورة الفكرية الاجتماعية السياسية التى خرجت بأوروبا من ركود العصور الوسطى ووضعتها على أول طريق سيادة الدنيا ، ذلك أن مارتن لوثر بعد أن كتب احتجاجه هذا تطلعت إليه نفوس أهل الهمة والبسالة من أمته الألمانية ، كما تطلعت أمة الإسلام إلى أحمد بن حنبل وهنا أثبت لوثر أنه رجل الموقف ورجل المسئولية فتقدم وأهاب برجال الفضل والنجدة من الأمة فهبوا إليه سراعاً وحركته التى بدأت بتعليق احتجاجه الشهير على باب كنيسة وتنبرج سنة ١٥١٧ م استثارت الهمم وأيقظت القلوب وعندما استدعوه للمناقشة أو قل للمحاكمة فى كنيسة أوجزبورج ١٥١٨ تحرك الناس لنصره وعندما خاف أنصاره عليه من رجال البابا والإمبراطور فى مجمع « ورمز » خطفوه إلى قلعة أمير من المتحمسين لآرائه ، وبدأ لوثر طريقه العظيم وأقبل فى حصنه على العمل إقبالاً يروع النفس ، فإلى جانب ما ذكرنا من ترجمته الإنجيل والعهد القديم خرج إلى الميدان وأثبت أنه رجل الموقف والمسئولية وابن بجدتها كما نقول : وكتب خطابه المشهور إلى أشراف الشعب الألمانى An Een Christlischen

A Del Deutscher Nation وبينما خذل ابن حنبل أهل النجدة من رجال الأمة الذين تطاولت أعناقهم إليه تقدم لوثر غير هياب وقاد حركة إيقاظ الفكر الأوروبى كله ونبه الشعب الألمانى إلى كيانه ودوره ، وسجل لوثر اسمه أول رجال النهضة فى أوروبا . وأوروبا ـ أيها الأعزة لم تبلغ إلى ما هى فيه اليوم مصادفة ولا فى سواد ليلة ـ إنما هى بناء ضخم بنته حفنة من البواسل وأصحاب المواهب حجرًا حجرًا وأعلوه دورًا دورًا ، وأوروبا ولدت أمريكا واستراليا وسادت الدنيا .. أتدرى ماذا كانت نتيجة موقف أحمد ابن حنبل عندما وقف فى أول الطريق ؟ لقد ازداد تدهور الخليفة المتوكل وحواشيه حتى أصبح من أسوأ وأفسد من عرف التاريخ من الخلفاء ، والجماهير التى كان يستطيع أن يقودها فى طريق البناء تحولت إلى جماهير تخريب ، وحجر على الفكر ومطاردة لكل صاحب رأى ، لقد حسبت الجماهير أن الحنبلية معناها الجمود ؛ لأن أحمد بن حنبل وقف وجمد وتجمعوا عصابات فى بغداد عرفت بالحشوية أصبحت تهاجم كل من قيل إنه يخالف ابن حنبل وتقتله وتنهب داره .

لقد نجا أحمد بن حنبل وحده ، أما نحن فغرقنا ؛ لأن الأمة التى كانت تعانى بدايات المرض أصيبت بنكسة ، والمريض إذا انتكس ولم يجد من يعالجه تدهور وسار إلى طريق الموت والبداية الطيبة أصبحت نهاية سيئة وأنت عندما تسأل : ماذا دهى أمة العرب ؟ فهذه بداية الجواب وسآتيك فى الفصل التالى بما يزيدك بصيرة .

* * *

الطَّرِيقُ إِلَى المَاضِي

كان أحمد بن حنبل عمره كله رجلاً متقللاً من الدنيا ، وكان قبل المحنة يجلس مع أصحابه ويقرأ على تلاميذه ، أو يذاكر أهل الحديث فيما جمعوا منه ، ويناقشهم مع الصبر الطويل ، وكان العصر كله (١٥٠ ـ ٢٥٠ هـ / ٧٦٧ ـ ٨٦٤ م) أزهى عصور جمع الحديث وكتابته ، وكان أحمد بن حنبل رابع أربعة اجتهدوا فى جمع الحديث فى ذلك العصر ، والثلاثة الآخرون هم : محمد بن إسماعيل البخارى ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عيسى الترمذى ، ولكنه بعد المحنة تنسك واعتزل وتجهم للدنيا وواصل الصيام ، فكان يسرد الصيام الأيام العشرة لا يأكل فيها شيئاً حتى هزل وضعف واعتل ، وما أمر الله ورسوله بالزهد أو سرد الصيام ولكنها رهبانية فرضها أولئك الرجال على أنفسهم فأضروا بها وبالناس أيضاً . وأحمد بن حنبل الذى كان قبل المحنة من أيسر الناس فى فتاواه ، أصبح بعدها لا يطيق سماع أحد وإذا كان هذا نتيجة المحنة التى مر بها وأثرًا من آثار صيامه وزهده فى الطعام فإن الله لا يرضى أن يطول صيام الرجل حتى يعتل بدنه .

وإذا كان الناس فى حاجة إلى فقه أحمد فقد كانوا أحوج إلى وجوده بينهم ورؤيته يروح ويغدو ويلقى درسه ويأكل ويشرب ، فإن الزمان كان قد مال ميلاً شديدًا واحتاج الناس إلى من يعلمهم كيف يشقون طريقهم وسط المتاعب ، ومهما حدث فقد كان ولابد أن تعيش أمة الإسلام ليعيش بها الإسلام ، وقد رأينا فى حديثنا الماضى كيف أن الأمة كانت فى عافية ما تزال ، فهى تقبل على الجهاد عن عزيمة واستعداد للشهادة عظيم ، فما بالك برغبتها فى الحياة الآمنة الرخية ، وقد خلق الله الناس ليعيشوا لا ليموتوا ، والدين لهذا ينبغى أن يكون طريقاً إلى الحياة الفاضلة ودليلاً لها ولا يصح قط أن يتخذه الناس طريقاً إلى الموت ، والفقه ينبغى أن يكون منهاج حياة لا سبيلاً إلى الموت ، وكتب الفقه لا بد أن تكون كتب حياة لا كتب موتى ، جاء فى سيرة أحمد بن حنبل : جاء « الوزير يحيى بن خاقان يزور أحمد بن حنبل ـــ فجعل يخوض فى الطين فى زقاق أحمد حتى بيته ، وعلى البيت ستر هو قطعة خيش ، أما صاحب البيت فعليه كساء مرقوع فأقرأه سلام أمير المؤمنين (المتوكل) وأنبأه أن يسأل الله الدعاء له وأنه بعث إليه ألف دينار

يفرقهـا على ذوى الحاجات فلم يقبلها (رواه عبـد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ص ٤٤٦) . فأمـا رفض مال السلطـان فقد فهمنـاه ، فما معنى هـذا التعذيب كلـه للنفس والبدن ، ألم ينه رسول الله ﷺ عن مثل ذلك صـاحبيه سعيد بن زيد بن نفيل ، وعثمان ابن مظعون ، واقرأ هذا الخبر من سيرة ابن حنبل يرويه الحافظ الذهبى : وعن المروذى قال : أنبهنى أبـو عبد الله (أحمد بن حنبل) ذات ليلة وكان قـد واصل (الصيام) فإذا هو قاعد فقال : هو ذا يـدار بى من الجوع (أى إنه كان يشعر بدوار) فأطعمنى شيئاً ، فجئته بأقـل من رغيف فأكله قـال : لولا أنى أخـاف العون على نفسى ما أكلـت ، وكان يقوم من فراشه إلى (المخـرج) الباب فيقعد يستريح من الضعف والجوع ، وحتى إنى كنت لأبل الخرقة فيلفهـا على وجهه لترجع إليه نفســه حتــى أوصى (كتب وصيته) مــن غيــر مرض (بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ص ٧٠) .

ففيم والله كان عـذاب النفس هذا ؟ والدين يسر لا عسر ، وكيف يأتم النـاس برجل يموت تحت أعينهم وهم أحـوج إلى رجل يعيش فيهم ليتعلموا منه كيف يعيشـون حياة فـاضلة ، واسمع إلى أحمد بن حنبل يقـول في سيرته التى رواهـا الحافظ الذهبي بعـد السند ، سمعت أحمد بن حنبل يقول (ص ٣٠) : أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه الصحابة وترك البدع وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء وترك المراء والجدال ، وليس فى السنـة قياس ولا يضرب لها الأمثـال ولا تدرك بـالعقول ، والقـرآن كلام الله غير مخلـوق ، وإنه من الله ليس ببائن منـه ، وإياك ومناظرة من أحـدث فيه .. فكأن السنة هنا هى الجمود فإن الزمان لم يتوقف بعد عصر الصحابة ولا بد أن ظروفاً جديدة تجىء ولا بد للمسلمين من أن يعيشوا زمـانهم فى حدود ما أمر الله به ، وما نهى الله عنه ، والبدعة فى عرف فقهـاء تلك العصور هى رفض الاعتراف بأى شىء ظهر بعد العصر النبوى فكيف لا يستخرج الناس من الأحكام ما يحلون مشاكلهم على ضوء من القـرآن والسنة وكيف يقـال : ليس فى السنـة قياس إذا كـان علينا أن نلتمس لأنفسنـا سبيلاً فى ظروف تتجدد كل يوم فى ضوء القرآن والسنة ؟ وكيف لا تضرب للسنة الأمثال إذا كانت الأمثال من فعل الرسول ﷺ وأصحابه نماذج يحتذيها الناس فى حل مشاكلهم التى تظهر كل يوم وتفـرض نفسها مع ظروف الزمـان المتغيرة ، قلنا لا معنى أو فائدة تـرجى من الجدل فى أشياء لا طـائل وراءها كـالتساؤل عما إذا كـان القرآن قـديماً أو مخلوقاً ، فإن القرآن هو كلام الله وهو بين أيدينـا نؤمن بكل كلمة فيه ونأخذ بما يأمرنا

به ونقف عند ما ينهانا عنه ، ونستضىء بهداه فى حل كل ما يلقانا من مشاكل كل يوم ، وهـذا حسبنا وأى خير يتأتى من السـؤال عما إذا كانت صفـات الله هى ذات الله أو هى شىء ينفصل عنها فإن الله سبحانه هو الحى الخالق ولا إله غيره وهو ربنا حسبنا وهو القوى العزيز العليم الخبير الرحمن الرحيم إلى آخر أسمائه الحسنى التى وصف نفسه بها ، فما حاجتنا إلى التساؤل عما وراء ذلك ، وما عـدا ذلك فهباء وسفسطة ، وفى حدود هذا كله لا بد أن نعيش ، وأئمة الإسلام ينبغى أن يسيروا بنا فى طريق الحياة لا فى طريق الموت ، وأحمد بن حنبل قبل المحنة كان رجلاً مستبشرًا يقعد للطلاب ويصبر على الدرس فإذا آنس من أحد من إخوانـه أو تلاميذه علماً صحيحاً وفطانة وأمـانة أخذ عنه ، وأنت تقرأ مسنده فتجـد فى اختياراته من الأحاديـث ذكاء وحسن تقدير واستقـامة ميزان لا تجدها عنـد غيره ، وأنا ألتمس فى مسنده الأحـاديث ذات المعنى الحضارى فأجـد منها عنده أكثر مما أجد عند غيره ، هذا إلى عنايـة تامة بالنظافة وحسن المظهر ، قال ابن أبى حاتم : ذكر عبـد الله بن أبى عمر البكرى قال : سمعت إسماعيل الميمـونى قال : ما أعلم أنى رأيت أحداً أنظف ثوبًا ولا أشد تعاهدًا لنفسه فى شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه ولا أنقى ثوباً وشدة بيـاض من أحمد بن حنبل (سيرة أحمد بن حنبل للحافظ الذهبى ص ٢٥) فتغير ذلك كله من بدايـة المحنة إلى نهاية حياته ، ولم تبق فى ذاكـرة الناس منه إلا الرجل الجهم الصارم الزاهد فى الدنيا والناس والمتفرد بنفسه ، وكان الناس فى حاجة إلى عكس ذلك منه ، فإن الزمان كان فى تدهـور والأحوال تسوء والأمة كانت بحاجة إلى من يقودها فى طـريق الحياة والقوة والخلاص ، وأيام الواثق والمتـوكل بالذات (من ٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ ومن ٢٣٢ هـ ـ ٢٤٧ هـ / ومن ٨٤٢ ـ ٨٤٦ م ومن ٨٤٦ إلى ٨٦١ م) كانت أيام محنة أى محنة للأمة كلها ، لقد كـان بناء أمة لا تزال بخير ، والقلوب عامرة بالخير والاستبشار والقوة والاستعداد للوقوف فى وجه الظلم والتدهور والفساد وكان الشعب العربى القوى فى حاجة إلى زعيم يقـودهم فى طريق الإصلاح فلم يجدوه وظهر أن أحمد لم يكن رجل الموقف ، وليس هذا عتبًا منا عليه فهـذا هو طبعه واستعداده والتاريخ علم حقائق لا تمنيـات ، فقد كان رجل آخرة لا دنيـا وآخرة ، ومن مأثور كلماته ، « أمـا بعد فإن الـدنيـا داء والسلطـان داء والعـالم طبيب فإذا رأيت الطبيب يجر الـداء إلى نفسـه فاحذره والسلام » فى مثل هذا الموقف قال مارتن لـوثر ما معناه : البابا داء والامبراطور داء والعالم طبيب ولهذا فأتصدى للعلاج وسأخوض المعركة لكى يعيش الناس ، وكانت

الظروف فعلاً محتاجة إلى زعيم يقود الناس ، فقد كان المعتصم قد أسقط العرب من الديوان أى أخرجهم من جيوش الدولة ، وهذا أمر عجيب لم يسمع بمثله ، وهل تتصور مثلاً أن يصدر قرار بحرمان المصريين من الخدمة العسكرية فى جيش بلادهم ، وتقصر على غير المصريين وكان هذا القرار شرًا من بدايته ؛ لأن العرب عصب الدولة وبناة مجدها ، وإذا كانوا قد تغيروا على الخلفاء ، فإن ذلك كان بسبب مظالم هؤلاء وسوء تدبيرهم للأمور ، ولم يكن العلاج إخراج العرب من الجيش وشراء الألوف من الأتراك واستخدامهم فى الجيش وشئون الدولة ؛ لأن هؤلاء مرتزقة أجلاف لا تصلح بهم دولة عربية فكانت النتيجة أن العرب المحاربين الذين طردوا من الجيش تحولوا إلى ثوار على الدولة ، وقام فى شمال الجزيرة والحجاز بنو هلال بن عامر بن صعصعة وبنو سليم ابن منصور ، وتولى رجل يسمى أحمد بن نصر الخزاعى ثورة عرب بغداد على الخلافة وجندها ولم يكن هذا الرجل جاهلاً ولا جلفاً إنما كان عربياً ثائرًا ذا رأى وعزة وكرامة ، وكان على صلة بنفر من أكابر رجال العلم والحديث من أمثال يحيى بن معين ، وابن أبى خيثمة أحمد بن زهير بن حرب ومن فى طبقتهم ، وكان هذا الرجل يقول في الخليفة الواثق الذى خلف المعتصم هذا الخنزير أو هذا الكافر ، وكان والد هذا الرجل ممن قاموا ضد المأمون عندما قتل أخاه وأقاموا شبه حكومة ببغداد عندما كثر اللصوص بها وعندما دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م سكنوا ورجوا أن يكون منه خير ، واجتهد هذا الرجل وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعى فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنكر القول بخلق القرآن (سنة ٢٣١ هـ) ولكن جند الخليفة الواثق قبضوا عليه وعقد الخليفة مجلساً للنظر فى أمره ورأس المجلس أحمد بن أبى دُوَاد القاضى وأنصاره فقال واحد منهم : هو حلال الدم . وقال آخر : اسقنى دمه يا أمير المؤمنين ، وانتهى الأمر بأن نهض الخليفة الواثق وقتل الرجل حسبة لله تعالى (الطبرى ٩ / ١٣٥ وما يليها) .

واتسع نطاق ثورة العرب وشملت ديار كندة وربيعة وبنى كلب بن وبرة فى الشام ، ولكنهم كانوا محتاجين إلى زعيم يقودهم فلم يجدوا ، وانكسرت شوكة الثائرين وانتهى أمرهم على يد رجال الخليفة وتلك هى الظروف التى كان الناس فيها محتاجين إلى زعامة رجل من طراز رجال العصر الراشدى ، وكان أصحابنا رؤساء الأمة وهم الفقهاء

والعلماء يرون هـذا كله ولا يشعرون أنـه يفرض عليهم واجبًا حيـال أولئك الناس إنما حسبهم أن يقرأوا على النـاس أخبار الصحابة وصـلابتهم فى الحق وجهادهم فى سبيل الحق والإسلام ، ولـو وقف واحد منهم محتجًا على هـذا الفساد كما وقف مارتن لـوثر لوجد ألوف الرجال مستعدين لنصرته وإقامة ميزان العدل وتصحيح مسار الدولة كله ، وكما قام أنصـار لوثـر باختطافـه وحمايته فتشجع وسـار فى طريقـه ووقعت الثورة الحاسمة على ركنى الفسـاد إذ ذاك وهما البابويـة والامبراطورية ، فقـد كان من الممكن جدًا لواحد من هؤلاء الفقهاء الـذين كانوا لا يكفون عن القول بأن الإيمان قول وعمل لم يشعروا أن هنا واجباً يناديهم وتـركوا الفساد يستشرى وضاع الأمل . فهل تتعجب أن ينضم بنو هلال بن عامر بن صعصعة وبنو سليم بن منصور إلى حركة القرامطة وهى حركة شيعية مخربة قامت واشتد بلاؤها فى شمال جزيرة العرب خلال القرن الهجرى الرابع وارتكب أصحـابها من الأفاعيل مـا لا يصدق حتى إنهم هاجموا مكـة واقتحموا الحرم الشريف وسرقـوا الحجر الأسـود ومضوا بـه إلى البحرين حيث ظل فى حـوزتهم قرابة العشرين عاماً حتى استرده منهم الخليفة الفـاطمى العزيز الذى خلف المعز لدين الله فى مصر ، وجماع القول فى أحمد بن حنبل ما قاله فيه أبو داود صاحب كتاب السنن : كانت مجالس أحمد مجالس الآخـرة لا يُذْكَرُ فيها شىء من أمـر الدنيا ، ما رأيتـه ذكر الدنيا قط .

وإذا كان أهل السياسة قد خرجوا عن المنهج خروجًا تامًا وانصرف الصالحون من أهل العلم إلى الآخـرة فمن أين يمكن أن ننتظـر الإصـلاح ، وهل الإسـلام دين آخـرة فحسب ؟ وهل سنة رسول الله ﷺ هى مباعدة الـدنيا وإهمال شئونها وتوجيه الجهود جميعًا إلى الآخـرة ؟ إذن ففيم كان جهـاده ﷺ وصبره وشجاعتـه وإقبالـه على الناس يعلمهم ويـؤدبهم ويدلهم على طـريق الصلاح فى الـدنيا إذ لا صـلاح لآخرة النـاس إلا بصلاح دنياهـم ؟ وكيف ننتظر من الناس الصلاح والتقـوى إذا كانوا جياعًـا عريانين مهددين بالأخطار والمظـالم ليل نهار ، بل من يـدلهم على طريق الخير إذا كان أعـاظم الفقهاء قد تحولوا إلى أهل عبادة منقطعين عن الناس وكأنهم رهبان بوذيون فى معابد ؟ ومـاذا ينفع الناس أن يقـول رجل يسمى الخلال : سمعت رجلاً من خـراسان يقـول : عندنا أحمد بن حنبل يرون أنه لا يشبه البشر ، يظنون أنه من الملائكة .

كان أحمد بن حنبل رجلاً عظيمًا ومذهبه جليلاً ، ولكن التطبيق لم يكن سليمًا فلم يستطع المذهب القيام بحركة نافعة للناس إلا بعد زمن طويل عندما تنبه محمد بن عبد الوهاب فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى إلى أن العلم لا تتم فائدته إلا بالعمل ، ولا صلاح لآخرة الناس إلا بصلاح دنياهم ، فانضم إلى الشيخ الإمام محمد بن سعود والاثنان معاً قاما بالحركة الوهابية التى كانت خيرًا عظيمًا للعرب والإسلام جميعاً ، وكل ما نراه اليوم من معالم الرخاء والنهوض والعمران وإصلاح أحوال الدنيا فى جزيرة العرب إنما هو نتيجة للتطبيق العملى لمبادىء عظيمة وضعها الفقهاء وانتهت ذروتها عند أحمد بن حنبل ، ولكن أحمد وأصحابه لم ينفعوا الناس فى أيامهم ، وصارت الحنبلية عند العلماء خشونة وجمودًا ، يقول فى وصفهم أبو الوفا بن عقيل : هم قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالفة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة وغلب عليهم الجد وقَلَّ عندهم الهزل ، وعريت نفوسهم من ذل المراءاة وفزعوا من الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجاً من التأويل وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يوفقوا فى العلوم الغامضة ، بل وفقوا وأخذوا ما ظهر من العلوم وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية بارئها ولم أحفظ عليهم تشبيهًا (رواه عبد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ص ٣١٢) .

وهذه الصورة انعكست بصورة سيئة عند جماهير الناس ممن لم يجدوا من يقودهم ويهديهم فتحولوا إلى قوة مخربة تهاجم دون رحمة أى إنسان يقال عنه إنه يفكر أو يبدى رأيًا يخالف ما ظنوا أنه رأى أحمد وما كان لأحمد رأى ، إنما هو فيما يتصل بالتطبيق والتصرف ـ رجل نقل وتقليد ـ ومن أوائل القرن الرابع الهجرى أصبحت بغداد ضحية لشراذم من جهال الناس زعموا أنهم حنابلة وسماهم الناس الحشوية ، جعلوا دأبهم إرهاب الناس والعدوان على كل صاحب فكرة وقد حدث مثل هذا فى تفاصيل الحركة اللوثرية ، فقد حدث أن تحمس الجمهور لآراء لوثر وأحسوا أن ثورته تفتح لهم باب الانتقام من ظالميهم من رجال الدين والدولة وظنوه يدعو إلى الثورة على النظام واستعمال العنف وقادهم فى ذلك نفر من المتحمسين للدعوة اللوثرية وانفجرت ثورة الفلاحين وقاموا بنهب قصور الأغنياء وتخريب المزارع فما كان من لوثر إلا أن تصدى لهذه الحركة فمضى يطوف بالولايات الألمانية يدعو الفلاحين إلى

الهدوء والسلام ونشر فى مايو ١٥٢٥ رسالته المسماة : دعوة إلى السلام Ermahnung Zum Frieden ثم لم يلبث أن أعلن الحرب على العنف ودعـــا إلى إيقـاف النهب ونشر رسالتـه المسماة : Wider die Rqrherischen und morderlischen Rotten Der Bauern (رسالة ضـد الجماهير من القتلة اللصوص من الفلاحين) ممـا يعطينا مثالاً عن التصرف السليم الحازم للفقيه العـالم المصلح الذى يعلم أن الـدين للدنيـا والآخرة وأن الإيمان علم وعمل فعلاً لا مجرد كـلام فى كتب تستظهر جموع الحنابلة الحشـوية الجاهلـة التى أصبحت حـربًـا على الفكـر بل على الأمن نفسـه ، لأن العلماء تخلـوا عن قيادتها وقصروا فى واجبهم نحوها ؛ ولهذا هـاجمت الجماهير بيت أبى جعفر محمد بن جـرير الطبرى المؤرخ المفسر ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ؛ لأنهم اتهموه بـالزنـدقة ، وفى هـذه الظروف لم يعـد هناك مكـان لفكر أو أى شىء يشبـه الفكر بل نصبـوا أنفسهم حماة للدين على طريقتهم وهواهم وتعدوا على النـاس وضربوهم ونهبوهم (انظر : ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٣ هـ) .

ولا ينبغى هنـا أن نقصر اللوم على الجماهير ، بل يتحمـل العلماء جانبـاً كبيرًا من المسئولية ؛ لأنهم لم يقوموا بواجبهم من التعليم والتوجيه وتركوا السلاطين فى فسادهم من ناحيـة وعامة النـاس فى جهلهم من ناحيـة أخرى فازداد السـلاطين فسادًا وازداد العامة جهلاً .

* * *

فى هـــذا الجـو الخانق ظهـر الأشعـرى وهـو أبـو الحسن على بن إسماعيل بن إسـحاق الـذى ينتهى نسـبه إلى أبى مـوسى الأشـعرى صـــاحب رسـول الله ﷺ وهـو رجـل واســـع الذكـــاء عظيـم العلم ، ولكن حظه أراد لـه أن يشب ويـدرس ويتصـــدى للتعليم فى عصر غلب عليه الجمـود فقد ولد سنـة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م ، أى بعـد وفاة أحمد بن حنبل بتســـع عشرة سـنة ، وقـد اتجه الفكـر الإسلامى كلـه إلى الماضى وعـاد أدراجه إلى الـوراء كأنما هو قـد وصل إلى آخـر طريق الفكـر البشرى ثم انكفأ عائدًا إلى الماضى والحاضر كلـه لم يعد له وجـود عند ابن حنبل بعـد المحنة وزال

عنده كل مفهوم للمستقبل ، وأصبح هَمُّ المفكرين هـو العودة إلى الوراء بحثًا عن العصر الراشدى وهيهات .

ولد أبو الحسن الأشعرى ونشأ فى البصرة ، وكانت البصرة ما زالت موطن الاعتزال والمعتزلين وكان شيخهم أيـام شباب الأشعرى هو أبو على الجبائى وخلفـه فى الرياسة ابنه أبو هاشم الجبائى ، وعلى هذين درس الأشعرى وكـان شابًا ذكيًا قوى الذاكرة فلم يلبث أن ظهر أمره بين المعتزلة وأصبح من خيرة شبابهم ، ثم من كبار شيوخهم ، وكان المعتـزلة بعـد زوال عصر سلطـانهم فى عصر الخليفـة المتوكل قـد انطـووا على أنفسهم وتدهـورت آراؤهم ومناحى تفكيرهم وتمادوا فى السفسطة والجدل حتى سألـوا أسئلة بالغة السخف وردوا عليهـا بأجوبة أسخف مثل سؤالهم : هـل يظل رسول الله رسولاً بعد موته أو تنقطع عنه صفة الرسول بموته ؟ ووقف بعضهم عند قوله تعالى ﴿ **وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْـجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ (الرحمن ٥ / ٢٧) فقال : إذن فعندما تقوم القيامة ويفنى الكون لا يبقى إلا وجه الله لا غير ، أما بقيـة الله فلا تبقى إلى غير ذلك من المسائل التى تدل على تدهور شديد فى التخريف ، فما هذا بفكر على الإطلاق .

وبين هؤلاء المعتزلـة عاش أبو الحسن الأشعرى أربعين سنـة كان فيها من أئمتهم وكبار رجالهم ، ولكنـه عندما تغير الزمـان وانكشفت حقائق الاعتزال وأقـوال أصحابه وانصرف معظم المسلمين عنهم وانحصرت آراؤهم فى دوائر مقفلـــة معظمهـا فى البصرة أعاد الأشعرى النظر فى أمر نفسه فبدا لـه أن الاستمرار فى القول بآراء المعتزلة هباء لا يتحصل منه شىء ، وأن الخير فى أن يعود إلى السنة وأهلها ليخرج من الحفرة التى حكم على نفسه بالعيش فيها ، وقرر أن يعلن الانفصال عن الاعتزال والعودة إلى السنة ولكنه فعل ذلك بطريقة لا تبعث على الثقـة ، فانقطع عن الناس خمسة عشر يوماً خـرج بعدها واتجه إلى المسجد وصعـد المنبر وقال : معاشر النـاس إنى إنما تغيبت عنكم فى هذه المدة لأنى نظرت فتكـافأت عندى الأدلـة ولم يترجح عندى حق على باطـل ولا باطل على حق فاستهديت الله تبـارك وتعالى فهدانى إلى اعتقاد مـا أودعته فى كتبى هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعـت من ثوبى هذا ، وانخلع من ثوب كـان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس والخبر على هـذه الصورة يدعـو إلى الشك ؛ لأنه يفهم منـه أن أبا الحسن على بن إسماعيل الأشعرى عنـدما اعتـزل الناس أسبوعين ألَّف خـلالهما كتباً

جديـدة فى الفقه على مذهب أهل السنـة ، وكم كتاب والله يؤلف الإنسـان فى خمسة عشر يومًا ؟ ثم إن خلعه ثوبه القديم المعتزلى لا يخلـو من ظرف فإن هذا الثوب كان معتزليًا ، ولم يقل لنا صاحب الخبر إن كان أبو الحسن قد لبس أمام الناس ثوباً سنيًا .

وهناك أخبار تقول : إن الأشعرى رأى رسول الله ﷺ فى منـامه فشكا إليه شكوكه فى مسائل الاعتـزال فقال لـه رسول الله ﷺ : عليك بسنتى . قـال :فانتبهت وعـارضت مسـائل الكلام بما وجـدت فى القرآن والأخبـار (أحاديث الـرسول وأخبـار الصحابـة والسلف الصالح) فأثبته ونبذت ما سواه وراء ظهرى وإذا كان الأشعرى قد ولد سنة ٢٦٠ أو ٢٧٠ هـ فيكون هذا التحول الحاسم قد تم سنة ٣٠٠ أو ٣١٠ هـ / ٩١٢ م أو ٩٢٢ ، أى قبل وفاة الرجل بأربع وعشرين أو أربع عشرة سنة ، لأنه توفى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م ، ويقول ابن خلكان فى المادة التى اختصه بها ـ وهى نـاقصة جدًا ـ وكان أبو الحسن يجلس أيـام الجمع فى حلقـة ابن إسحـاق المروذى الفقيـه الشـافعى فى جـامع المنصور ببغداد (٢ : ٤٤٦) .

وأراد الأشعرى أن يؤكد للناس صدق تـوبته فأعلن أنه يعود إلى السنة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل فقال : « ديانتنا التى نـدين بها هى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما روى عن الصحـابة والتـابعين وأئمة الحديث ، ونحن بـذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه ورفع درجته وأجـزل مثوبته ـ قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الفـاضل والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال » .

وذلك كان خطأ الأشعـرى الأول فإن الناس لا تصدق هذا التحول الكـامل ـ ١٨٠ درجة كما يقولون ـ دفعة واحدة ، والحنابلة بالذات كانوا من أشد الناس شكًا وريبة فى غيرهم فرفضوا توبته ولم يقبلوه ورموه عن قوس واحدة ، والخطأ الثانى أن الرجل عاد إلى السنة على طريقة المعتزلة أى أنـه بعد أن كان متكلمًا معتزليًا أصبح متكلمًا سنيًا أى أنه أراد أن يدفع عن السنة ويؤيدها بـالمنطق والحجة والجدل مع خصومها ، والحنابلة لا يحبون الجدل ولا يرضون أن يكون مـذهبهم موضع جدل ، إنما هو التسليم المطلق بلا سؤال أو مناقشة كما رأينا ، ولهذا فقد قال فيه أبو الفرج ابن الجوزى وهو من أئمة

الحنابلة : إن الأشعرى ظل على مذهب المعتزلة زمانًا طويلاً ثم تركه وأتى الناس بمقالة (رأى) خبط بها عقائد الناس .

وقد أخطأ الحنابلة فى موقفهم هذا من الأشعرى فقد كان الرجل بعد تحوله صحيح الاعتقاد فى السنة وكلامه كما يتجلى فى كتابه الأشهر « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » يدل على ذكاء واسع وفهم دقيق وإلمام بالإسلام ومذهب أهله عظيم ، ومذهبه فى التدليل على حقيقة الإسلام وصحة عقائده يعجب الرجل الذكى الذى يريد أن يسند إيمانه إلى فكر ومنطق ، ولهذا فإن الناس مع الزمن الطويل تبينوا فضل الأشعرى وما يمتاز به بين رجال الفكر الإسلامى من صفاء ذهن واستقامة منطق وصحة اعتقاد ، ولكن ليس من الصواب أن يقال : إن الأشعرى إمام من أئمة السنة لأنه لا يرقى قط إلى مستوى الأوزاعى أو مالك بن أنس أو أبى حنيفة أو أحمد بن حنبل إنما هو مفكر صاحب طريقة فى المنطق والاستدلال ، ومن سوء حظه أنه جاء بعد انحدار شمس الفكر الإسلامى إلى المغيب ، وقد استدار الناس للشمس وكروا عائدين باحثين عن الغد فى الأمس ، فلم يكن لدعوته صدى يذكر وإن كنا نحن نجد فى كلامه متعة وفائدة لأننا على طريقته نحب أن نستند إلى العقل إلى جانب العاطفة ، وهذا المذهب أشبه بالإسلام وأليق بالمسلم ، لأن القرآن ـ كلام الله ـ كتاب عقل وفكر ودعوة إلى الإيمان بالنظر والتأمل والاستدلال .

ومن أكابر تلاميذ الأشعرى الباقلانى وهو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، ولم يذكر أحد لنا سنة مولده أو سنة وفاته ولكنه على أى حال ظهر وعرفه الناس وأخذوا عنه خلال القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى وقد اشتهر بآرائه فى مجلس عضد الدولة البويهى أمير الأمراء وصاحب الأمر فى دولة الخلافة فيما بين شوال ٣٧٢ هـ/ أبريل سنة ٩٨٣ حتى رمضان سنة ٣٧٦ هـ / يناير ٩٨٧ م ، وكانت عاصمته شيراز لأنه كان رجلاً فارسيًا ديلمياً شديد العصبية لجنسه واسمه فناخسرو ويلقب بأبى شجاع ، وكان حاكماً ظالماً متطاولاً على أموال الناس ودمائهم ، وسيرته تدل على أنه كان لصًا بل قاطع طريق ، ولكن ذلك لم يمنع شاعرنا العظيم أبو الطيب المتنبى من أن يمدحه بقصيدة يقول فيها :

وقد رأيت الملوك قاطبة ... وسرت حتى رأيت مولاها

ومن منايا هم براحته ... يأمرها فيهم وينهاها

أبا الشجاع بفارس عضد الـ ... ـدولة فناخسرو شهانشاها

أسامياً لم تزده معرفة ... وإنما لذة ذكرناها

والباقلانى مشهور عندنا بكتاب « إعجاز القرآن » وهو كتاب جيد يدل على علم واسع وفكر رائق ولكنه لا يكفى لتبرير المكانة الكبيرة التى يحتلها الرجل فى تاريخنا الفكرى ولكنه دون شك كتاب عظيم ، بمعيار عصره وفى حدود مستوى العلم فى بدايات عصر الركود والجمود ، وإليك دليلاً على عقلية الفقهاء فى بدايات عصر الجمود هذا فقد كان من شيوخ الباقلانى رجل يسمى أبا الحسن الباهلى البصرى وهو من أصحاب الأشعرى أى أنه معدود فى جملة المتفتحين فاقرأ عنه هذه الحكاية التى يحكيها تلميذه أبو بكر الباقلانى الذى نحن بصدده « كنت أنا وأبو إسحاق الأسفراييني وابن فورك معاً فى درس الشيخ الباهلى وكان يدرس لنا فى كل جمعة مرة واحدة ، وكان منا فى حجاب يرخى الستر بيننا وبينه كى لانراه وكان من شدة اشتغاله بالله مثل واله أو مجنون لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره ذلك » ، ويعلق الأستاذ الجليل الشيخ السيد أحمد صقر محقق (إعجاز القرآن الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٧٧ ص ١٨) ، ولم يكن الباهلى يحتجب عن هؤلاء الثلاثة فقط ، بل كان يحتجب عن كل الناس حتى عن الجارية التى كانت تخدمه .

وقد سأله تلاميذه فى أول عهدهم به عن سبب إرساله الحجاب بينه وبينهم فقال : إنكم ترون السوقة وهم أهل الغفلة فترونى بالعين التى ترون أولئك بها ، فتأمل والله هذا الشيخ الذى بلغ به الغرور أن يرفض أن يراه تلاميذه بعيونهم التى يرون بها السوقة وهم عامة الناس مثلى ومثلك فيندس بهاء خلقته الجميلة ثم يقولون لك إنهم أهل سنة وعلم ودين ، ترى ماذا كان الرسول ﷺ يقول فى هذا الرجل الذى فاق بغبائه وغفلته أئمة الكفر فى مكة الذين رفضوا الجلوس إلى جانب المستضعفين ممن كانوا يرون أنهم سوقة منحطون عنهم من أمثال خباب بن الأرت الحداد وبلال الحبشى .

إلى أين وصلنا ؟!

أَبُو حَامِد الْغَزَالِيُّ
يَفْتَحُ لِلنَّاسِ أَبْوَابَ عَالَمِ الْقُلُوبِ

فى الطريق إلى الغزالى نلقى علمًا من أعلام الفكر الإسلامى جدير منا بوقفة طويلة ـ لولا ضيق المقام ـ فقد كان آية فى صدق الإيمان وسعة العلم ودقة الفهم ، وهو الجوينى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المكنى بأبى المعالى والملقب بإمام الحرمين (١٨ محرم ٤١٩ ـ ٢٥ ربيع الآخر ٤٧٨ هـ / ١٧ فبراير ١٠٢٩ ـ ٢٤ أغسطس ١٠٨٥ م) الذى كان بحق أعظم من ظهر من فقهاء الشافعية قبل أبى حامد الغزالى ، وهو بالفعل أنجب أبناء المذهب وأكثر من أفاد من الإمام الشافعى في علم الأصول ، وهو صاحب تآليف كثيرة أهمها « كتاب البرهان فى أصول الفقه » وهو الكتاب الثانى فى تاريخنا الفكرى الذى يحاول أن يضع للمسلمين منهجًا فى التفكير العلمى فى نفس الخط الذى سار عليه الشافعى فى « الرسالة » ، وعندما نقرأ كتاب « البرهان » نعجب بأبى المعالى إمام الحرمين الجوينى ، ولكننا نعجب أكثر بمحمد بن إدريس الشافعى الذى قال فى الرسالة وتقع فى أقل من مائة صفحة ـ أكثر مما قال الجوينى فى ستة أضعاف هذا القدر أو سبعة ، وهنا ـ عندما نضع الكتابين أحدهما إلى جانب الآخر ـ نلمس بيدنا معنى الإمامة فى العلم ومن يستحقها عن جدارة بها ، ويتجلى لنا الشافعى فى مكانه الصحيح وقدره العظيم .

ولد الجوينى فى نيسابور وشَبَ ونشأ أيام السلطان السلجوقى طغرل بك ، وقد انقضت أيام البويهيين وما عرفه أهل العراق وفارس فى أيامهم من بشاعات وشناعات ، وجاء السلاجقة أهل السُّنة فعز الشيوخ فى أيامهم واستعادت الخلافة العباسية بعض مكانتها الذاهبة ، وظهر جيل جديد من شيوخ السُّنة منهم :أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى ، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأسفراييني . وأبو نعيم الأصفهانى ، وأنشأ الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فى نيسابور . وأنشأ أخرى على مثالها فى بغداد ، وطاف الجوينى بمراكز العلم يتعلم ويدرس حتى ألم بكل علوم أهل السُّنة فى عصره وظهرت منه نجابة وامتياز وأصبح فى طبقة الشيوخ وهو بعد فى بداية كهولته . وجلس للتدريس فى المدينة ومكة . ومن هناك اشتهر أمره وحمل لقب إمام الحرمين وأقبل على

التأليف وكان أحسن ما ألف هو كتاب « البرهان » وقد أراد أن يضاهى به الشافعى فى « الرسالة » وقد أجاد فيه وتناول كل مسائل أصول الفقه بتفصيل وإسهاب ولكنه لم يأت فيه بجديد ، والميزة الكبرى له أنه يأتى فى الموضوع الذى يتحدث عنه بتعريف له ثم رأى أهل السُّنة ورأى المعتزلة ثم رد المتكلمين من أهل السُّنة على المعتزلة ، ويهتم اهتمامًا خاصًا برأى الأشعرى إذ هو أكبر المتكلمين على مذهب أهل السُّنة ثم يأتى برأيه هو فى النهاية .

ومما يستوقف نظرك عندما تقرأ هذا الكتاب الجيد هو أنه ـــ من حيث صميم المسائل ـ لا يزيد شيئًا على ما عند الشافعى ، والشافعى توفى على ما نعلم سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، ونحن الآن حوالى ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، فكأن ثلاثة قرون مرت دون أن يخطو العلم خطوة واحدة إلى الأمام ، وأمر آخر يسترعى انتباهك وهو أن الواقع أو الحاضر لا وجود له عنده فهو ينظر دائماً إلى الماضى ويستلهم الأفكار منه ، والأمثلة التى يضربها كلها من الماضى ومن العصر النبوى وعصر الصحابة فحسب كأن الزمان توقف هناك ، فلا تظفر هنا بمسألة واحدة من عصر الجوينى ولا كلمة تدلك على عصره وظروفه ، فالماضى وحده هو الحاضر ومسائل الماضى وحدها هى المسائل الجديرة بالاعتبار أما المستقبل فلا وجود له أصلاً ، والغاية الكبرى هى أن تتجمد الحياة كلها على الصورة التى كانت عليها فى أوائل العصر الراشدى حتى تقوم الساعة وينتهى الزمان ويوضع الميزان ويقوم الحساب ، وهذا هو الذى يجعل هذا الفكر كله قليل الفائدة لنا فى مسائل الحياة : إنه فكر عظيم بمفهوم عصره وفى إطار الماضى والذين يدرسونه يفعلون ذلك لقيمته الفقهية دون أى حساب للزمان أو حياة الناس .

ومن أمثلة المسائل التى يتعرض الجوينى لها ويناقشها : الصحابى إذا روى خبرًا وعمل بخلافه فهل يؤخذ بقوله أو بفعله ؟ ويقول إمام الحرمين : إن الشافعى يرى هنا أن العبرة بروايته لا بعمله ، أى بقوله دون عمله ، والشافعى هنا يريد أن يمحو من الوجود أى أثر لما وقع بين الصحابة من اختلافات ومنازعات بل حروب وهو لهذا ينصح بأن نأخذ بكلام الصحابة دون عملهم ؛ لأن كلامهم كله حسن ، أما أبو حنيفة فيتمشى مع طريقته فى التفكير الواسع ويقول : إنه مادام العمل مخالفًا للقول فلا يؤخذ بالقول ولا عبرة بالعمل طبعًا ، أما رأى الجوينى هنا فهو أننا مهما رأينا من عمل

الصحابى فلا بد أن نحمله على الورع والتعلق بالأفضل وإن ناقض عمله روايته مع ذكره لها ، ولم يحتمل محملاً فى الجمع (أى إذا لم نستطع التوفيق بين القول والعمل) فالذى أراه التعلق بروايته فإنه لا يظن بمن هو من أهل الرواية أن يعتمد مخالفة ما رواه إلا عن ثبت يوجب المخالفة (انظر : البرهان فى أصول الفقه بتحقيق د / عبد العظيم الديب ١ / ٤٤٢ وما بعدها) .

وعندما يتعرض الجوينى لمسألة تحتاج إلى حل مبتكر ينير للناس الطريق تجده يسترسل فى استعراض آراء الماضين ، ومثال ذلك مناقشته لموضوع الإجماع (١ / ٦٧٠ وما بعدها) فبدلاً من أن يقترح اقتراحًا نافعًا مثل إنشاء مجمع لعلماء السُّنة من أهل الأقطار الإسلامية يجتمع مرة فى السنة فى موسم الحج مثلاً ويشترك فيه من يتيسر له الحضور من شيوخ العلم حيث يتبادل الناس الرأى وهو ما قال به الأشعرى ، تجده يستعرض آراء الماضين فى الموضوع بادئاً بنقض رأى الأشعرى وننتهى آخر الأمر كما بدأنا والمسألة تبقى على حالها .

وجدير بالملاحظة هنا أن مفهوم العلم عند عامة علماء المسلمين حتى العصر الحديث هو العلم الدينى أى القرآن والسُّنة وما قاله الأئمة فى مسائل الفقه ، أما علوم المعاش فقلَّ أن يعنى بها أحد منهم ، وإذا هو عنى بشىء منها مثل الطب كان ذلك مقللاً من قدره بين أهل العلم والفقه ، وسنرى عند كلامنا عن الفلاسفة أن اشتغال الكندى بالرياضيات كان عيبًا أخذ عليه وبسببه أوذى ونهبت داره وأخذت كتبه ، وابن سينا وهو من مفاخر الفكر العالمى لا مكان له عند أهل الفقه والعلم ، أما ابن رشد فإن الذين مدحوه من أسلافنا استحسنوا أن يسقطوا من الذكر اشتغاله بالفلسفة وشرحه أرسطو ؛ لأن ذلك يحط من قدره وقد عوقب الرجل على ذلك فعلاً وأمر أبو يعقوب يوسف المنصور الخليفة الموحدى الناس بأن يبصقوا فى وجهه عقاباً له على اشتغاله بالفلسفة .

وفى مدرسة أبى المعالى إمام الحرمين الجوينى تكوَّن أبو حامد محمد بن محمد الطوسى الغزالى ، فقد ولد فى طوس (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) وفيها نشأ وتعلم ثم رحل إلى نيسابور حيث درس على الجوينى وأعجب به وأخذ عنه طريقته فى التفكير والنظر إلى الحياة واستقلال الفكر ورفض التقليد ـ أى اتباع شيخ من الشيوخ السابقين ومحاكاته

دون تفكير ـ وعندما توفى الجوينى سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) كان الغزالى قد أتم تعليمه ودرس الأصول ، وجدير بالذكر هنا أن أصول العلم فى تلك العصور كانت قليلة يحيط بها الطالب الذكى فى سنوات قليلة ، فهى القرآن وتفسيره وكتب الحديث المعتمدة وأهمها الصحيحان للبخارى ومسلم ، ثم جامع الترمذى ، ومسند أحمد بن حنبل ، وسنن أبى داود مع شىء من العربية والنحو ، وهذا حسبك إلا إذا أردت التخصص فى أحد علوم الدين كالتفسير والقراءات أو الحديث ، فهنا عليك أن تقرأ كل ما كتب فى ناحية تخصصك ، والغزالى لم يشأ أن يتخصص فى شىء ؛ لأنه لم يرد أن يكون محدثًا أو فقيهًا أو قاضيًا أو صاحب وظيفة ، فهو نفس حرة مطلقة يدرس العلم للعلم ويريد أن يكون أستاذًا فكان أستاذًا ، وقعد يقرأ العلم على الناس مكان شيخه الجوينى وهنا تجلى للناس عن عقل ذكى وقلب بالغ الحساسية وروح شفافة وخلق مستقيم كالسيف وتسامع به الناس فدعاه الوزير نظام الملك للتدريس فى المدرسة النظامية فى بغداد .

ونظام الملك هذا شخصية عجيبة من شخوص عالمى الفكر والسياسة فى ذلك العصر المضطرب ، وهو عصر السلاجقة الأتراك الذين حلوا فى سيادة دولة الخلافة محل البويهيين وهؤلاء الآخرون من صعاليك الفرس ، من فرع من فروع أهل الجبال منهم هم الديلم ، ومواطنهم جنوبى بحر قزوين وقاعدتهم الرى كانت تقوم مقام طهران الحالية ، وكانوا شيعة يسترون عقائدهم ليسودوا دولة الخلافة وكانت فترة سيادتهم من (٣٣٣ ـ ٤٤٤ هـ / ٩٤٤ ـ ١٠٥٢ م) من أسود فترات تاريخ الشرق الإسلامى فهم عتاة ظلمة جهلاء يتظاهرون بالعلم ، فلما ذهبت دولتهم وحل محلهم السلاجقة ـ وهم سنيون ـ اجتهدوا فى إعادة السُّنة إلى مكانها وأنشأوا مدارس لشيوخ السُّنة ليزيلوا آثار العبث البويهى ، وأكبر هذه المدارس كانت النظامية التى أنشأها نظام الملك هذا ، وهو أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى وهو معاصر للغزالى فقد ولد فى قرية مجاورة لطوس سنة (٤١٠ هـ / ١٠١٩ ـ ١٠٢٠ م) ودخل فى خدمة السلاجقة من أول أمرهم وأصبح وزيرًا لأعظم ملوكهم وهو ألب أرسلان الذى كسب للإسلام نصرًا من أعاظم انتصاراته على الروم البيزنطيين فى موقعة مانزيكارت التى تعرف فى تاريخنا باسم ملاذكرد ، وافتتح بذلك عصر النهوض العسكرى الإسلامى فى الشرق الذى بلغ ذروته أيام الأتراك العثمانيين ، وألب أرسلان قتل سنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م) وخلفه ابنه طغرل بك واستمر نظام الملك وزيرًا له وأصبح السيد المطلق فى

دولة الخلافة لأن طغرل بك عندما تولى كانت سِنُّه ١٨ سنة هجرية وأصبح نظام الملك يلقب بأتا ـ بك والأتابك أى خال الأمير أو الوصى عليه ومدير شئون الدولة باسمه ، وقد نجح نظام الملك فى إقرار مذهب السنة ودخل لهذا السبب في منازعات وعداوات مع غلاة الشيعة مما انتهى باغتياله على أيدى جماعة سرية تسمى بالإسماعيلية الحشاشين فى العاشر من (رمضان ٤٨٥ هـ / ١٤ أكتوبر ١٠٩٢ م) وخلف لنا كتاباً متوسط القيمة فى الإدارة يسمى سياسة نامه أى كتاب السياسة .

ورغم جهود نظام الملك فقد ظل الجو السياسى مضطرباً مكفهرًا ، وفى كل يوم يقتل وزير أو أمير وتدور معارك ويهلك الناس والحقيقة أن الخلافة العباسية لم تقم لها قائمة تذكر بعد كارثة العصر البويهى الذى هبط بالخلافة إلى درك سحيق وفتح الباب لكل المذاهب الضالة والمعادية للإسلام لتنتشر دون قيد ، وكان دعاة غلاة الشيعة الإسماعيلية قد زعزعوا قوائم المجتمع بما نشروه فى الناس من الأمل الكاذب فيما سموه المهدى المنتظر ، وكان عوام الناس فى درك سحيق من الفقر والتعاسة والجهل فقد استبد بهم الملوك من ناحية وتخلى عنهم أهل العلم من ناحية ، فلم يبق قريبًا منهم إلا الداعية الإسماعيلى الذى كان يمنيهم بالخلاص من الفقر والذل بقيام دولة المهدى من آل البيت التى تملأ الدنيا عدلاً ، وما زالت المؤامرة الكبرى تتسع حتى بلغت ذروتها بقيام دولة الفاطميين فى بلاد إفريقية وهى تونس الحالية سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) ثم انتقلت إلى مصر سنة (٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م) وأخذت تنازع الخلافة العباسية على السلطان فى بلاد الشام ، ومن صحراء جزيرة العرب أقبل القرامطة وهم شركاء الفاطميين يطالبون بنصيبهم من الغنيمة وانضم إليهم بنو هلال ، وبنو سليم بن منصور وهاجموا العراق ودمشق ودخلوا مكة وسرقوا الحجر الأسود على ما قلناه ، وقد تصدى السلاجقة للفاطميين واستمرت الحروب قائمة بين الجانبين حتى زمن الغزالى واقتربنا من كارثة الغزو الصليبى سنة ١٠٩٧ م ، وهى عدوان خطير طويل على بلاد الإسلام ما زلنا نستنكره ونحمل على الذين قاموا به من ملوك النصرانية الغربية وأمرائها ونحن أحق باللوم والتنديد ، فإن البلاد لا تغزى من الخارج بل من الداخل كما قال المؤرخ الرومانى تاكيتوس ، بمعنى أن الأمة إذا كانت قوية البناء سليمة التكوين صحيحة الاعتقاد قائمة على العدل ، لم يجسر على العدوان عليها أحد ، والصليبيون عندما هاجمونا كنا فى الحضيض من التفرقة والضعف فعلاً ، والضعف لم يكن

سياسيًا فحسب بل كان عقائديًا أخلاقيًا فكانت قلوبنا ونفوسنا واعتقاداتنا شتى ، وهنا فى حالات الضعف والتفرق يظهر الأعداء ، ولو لم يهاجمنا الصليبيون لهاجمنا غيرهم ونحن أولاً وآخرًا السبب ، نحن البلاء وأسباب البلاء ، هكذا كنا أيام الغزالى وهكذا نحن اليوم ونحن قوم لا نتعلم شيئًا : لا من التاريخ ولا من الحياة ولا من الدين ، أشقياء بأنفسنا قبل أن نشقى بغيرنا ، ولا يهون قوم على الناس حتى يهونوا على أنفسهم .

فى هذا الجو المضطرب الحافل بالمخاوف والأخطار على أمة الإسلام نشأ الغزالى ودخل ميدان الحياة وكان بطبعه شابًا واسع الذكاء بعيد الغور .

أقبل على التدريس فى النظامية ، وبلغ مكانة كبرى وهو بعد دون الثلاثين وأقبلت عليه الدنيا فخاف إقبالها عليه وأحس أنه مسئول عن هذه الأمة ومصيرها ، وأحس أنها ليست بحاجة إلى زعيم سياسى قوى يسوق الناس بعصاه فإذا مات انفض كل شىء وعاد إلى ما كان عليه ، بل هى بحاجة إلى معلم يعود بها إلى الأصول ويبدأ معها الطريق ، هنا تتجلى لنا أستاذية الغزالى فهو لم يكن أستاذ مدرسة أو جامعة إنما أستاذ أمة ، ولأنه أستاذ أمة فقد بدأ بنفسه يعلمها ويهذبها وقال لنفسه : لقد ضللنا الطريق فلنعد إلى نقطة البداية ، والبداية هنا هى الله سبحانه .. من هنا نبدأ ونسير خطوة خطوة لنرى أين ننتهى ، وهو عندما بدأ من جديد لم يعد إلى قراءة الكتب لأنه كان يحفظها ، ولكنه عاد إليها ليعيشها ، فهو إذا عاد يتدبر القرآن اجتهد فى أن يعيش القرآن وهو لا يكتفى بقراءة الأحاديث إنما هو يعيش السُّنة لأن العلم لا ينبغى أن يكون دراسة فحسب بل معايشة أو قل تجربة شخصية قلبية يعيشها الإنسان . لكى يعيش الغزالى التجربة الجديدة هانت عليه الدنيا ؛ لأن الدنيا الرخيصة التى يتهافت الناس عليها لا تساوى عناء عيشها ، وها هو ذا أستاذ عظيم فى النظامية يتمتع بجاه عظيم وصيت كالطبل ولكنه هو نفسه لا يشعر فى داخل نفسه أنه شىء ، إنه ضائع محير فقير . ولكى يجد نفسه لا بد أن يتخلى عن الحوائل التى تحول بينه وبين نفسه وهى الوظيفة والمال والجاه وغرور الدنيا ، والإنسان إذا انتصر على متاع الدنيا وأحس أنه لا يحتاج إليه لأنه أقوى منه أصبح فى أصفى حالاته ، وعندما يصبح الإنسان فى أصفى حالاته يصبح أقوى من الجبال ، وترك الغزالى ما هو فيه وتخلى عن الوظيفة والجاه والمال فلم

يتمسك منه إلا بما يقيم أمر العيال ـ أى الأسرة ـ ولم يكن ذلك سهلاً فإن الجاه محبوب والمال مطلوب والصيت غلاب ، والقصة كلها يحكيها أبو حامد فى أروع كتبه على الإطلاق وهو « المنقذ من الضلال » .. وهى قصة نفس حيرى هائمة بالحق تطلبه لنفسها قبل أن تطلبه للناس وقد كتبه الغزالى بمداد قلبه ؛ لأن الخصلة الكبرى التى تميز الغزالى عن غيره هى الصدق : الصدق مع نفسه ومع الله سبحانه أولاً . واستمع إليه يقول فى ذلك الكتاب العظيم :

« وهذه الحركة قدرها الله تعالى وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن وأنا أعلم أنى ـ وإن رجعت إلى نشر العلم ـ فما رجعت فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى يكسب به الجاه وأدعو إليه بقولى وعملى وكان ذلك قصدى ونيتى ، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه » .

« وهذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى بعلم الله ذلك منى ، وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ، ولست أدرى أأصل إلى مرادى أم أخترم (أموت) دون غرضى ؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأنى لم أتحرك ولكنه حركنى ، وأنى لم أعمل ولكنه استعملنى ، فأسأله أن يصلحنى أولاً ثم يصلح بى ويهدينى ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقًا ويرزقنى اتباعه ويرينى الباطل باطلاً ويرزقنى اجتنابه » .

إذن فالغزالى يريد إصلاح زمانه ولكنه يرى أنه لا يستطيع إصلاح غيره إذا لم يكن هو صالحًا ، ولهذا فهو يريد أن يعتزل ليتأمل ويفكر لا بحثًا عن الحق فهو يعرف الحق وهو الله سبحانه ولكن الذى كان يبحث عنه هو الطريق إلى الحق ونقطة البداية هى ترك الجاه والمركز ، لا احتقاراً لهما بل لكى يستطيع أن يرى بوضوح ، وكان الناس فى أيامه قد ذهبوا مذاهب شتى بعيدًا عن الحق ، والبعد عن الحق فى رأى الغزالى هو سبب الضلال والبلاء والضعف وتفرق أمور المسلمين ، وطالت عزلة الغزالى إحدى عشرة سنة كما قال (من ذى قعدة ٤٨٨ ـ ذى قعدة ٤٩٩ هـ / ١٠٩٥ ـ ١١٠٥ م) .

وفى عزلته عرض فى نفسه ما قرأ من آراء المتكلمين والمعتزلة والباطنية والفلاسفة ورأى أنها كلها لا تؤدى إلى إيمان أو استقرار النفس بل إلى الحيرة والشك وضعف اليقين ، وقال فى كلامه عن الفلاسفة « حتى إن ابن سينا فى وصية له كتب فيها أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصر فى العبادات الدينية ولا يشرب تلهياً بل تداويًا وتشافيًا ، فكان منتهى حالته فى صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافى فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة وزادهم ضعف المعترضين عليهم إذا اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق وغير ذلك مما هو ضرورى لهم على ما بيَّنا علته قبل .

وبينما كان المعتزلة ومعظم أهل العلم عندنا يحتقرون العوام ويرون أنفسهم أرفع درجة منهم حتى أن واحدًا منهم هو أبو بكر الباهلى الذى ذكرناه كان يستر وجهه عن طلابه لأن طلابه يرون بعيونهم السوقة فتصبح بهذا غير جديرة بأن ترى وجهه ، فاستمع إلى الغزالى يقول فى المنقذ من الضلال : « ومن نظر فى أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام وما ورد من الأخبار فى اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه فى جر الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما لا يصلح إلا به دينهم ودنياهم . حصل به على علم ضرورى بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده» .

ويختم الغزالى كتابه المنقذ باليأس من العلم الدنيوى الذى يزيد الإنسان غفلة عن الحق وغرورًا بنفسه ، ويقول « أما العلم الحقيقى فيزيد صاحبه خشية وخوفًا ورجاء وذلك يحول بينه وبين المعاصى إلا الهفوات التى لا ينفك عنها البشر إلا فى الفترات وذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، فالمؤمن مُفتَّن توّاب وهو بعيد عن الإصرار والإكباب » .

* * *

ويخرج الإنسان من قراءة « المنقذ من الضلال » بأن الغزالى لم ينته إلى نهاية بل إلى بداية ، بداية طريق الإنسان نحو الصلاح ، ولا بد أن نقول هنا : إن الغزالى كان مكثرًا من الكتابة وكلما أحس أنه وصل إلى شىء سارع فكتب به رسالة ، وهذا يدل على تفاؤله وحسن رجائه فى الله والناس ، فهو يسعى إلى ما فيه خيرهم أبدًا وهو يشركهم فى كل ما

يدور فى ذهنه ، وقد أحصى الدكتور / عبد الرحمن بدوى فى كتاب (مؤلفات الغزالى) عشرات من هذه الكتب التى يعتبر كل منها قطعة من الإيمان والحق والصدق ، وإذا كان المنقذ يعرض علينا كيف درس الغزالى كل صنف من أصناف العلوم والاتجاهات وانتهى إلى زيفها جميعًا ، فإنه ألَّف فى كل علم واتجاه فكرى رسالة صغيرة تدل على علم حقيقى وعمق فى النظرة وطلب صادق للحق . فكتب كتاب (تهافت الفلاسفة) ردًا على أهل الفلسفة (وأسرار الباطنية) دحض فيه حججهم ورد على التعليمية الذين كانوا يقولون : إن كل زمان يحتاج إلى معلم ، ورسول الله ﷺ معلم زمانه ، ويحتاج الأمر بعده إلى معلمين يرشدون الناس وهؤلاء المعلمون هم دعاة المهدية من الشيعة ، وهم يقولون إنهم يعدلون الرسول ﷺ ، بل إن له كتابًا جميلاً فى مناقشة النصارى عنوانه (الرد الجميل على أتباع عيسى بنص الإنجيل) وهو فيه رجل هادىء منطقى إنسانى بعيد عن التعصب والغرور لا يقول شيئًا من جارح الكلام ؛ لأن الغزالى كان إنسانًا رقيق القلب مرهف العاطفة على خلق عظيم .

* * *

وانتهى الفكر بالغزالى إلى التصوف أى الانقطاع للفكر والتأمل والعبادة وهو فى تصوفه إيجابى أى أنه يبحث عن طريق الهداية ، وفى تصوفه وعزلته كتب أشهر كتبه وهو (إحياء علوم الدين) وهو كتاب جميل ولكنه حزين ، لأن الغزالى لا يحيى فيه علوم الدين لكى يعيش بها حياة محترمة ، بل لكى يموت ميتة شريفة ، فهو طريق إلى الموت لا إلى الحياة ، وكان الغزالى يقول فيه : « لقد ضاعت الدنيا ولم يبق لنا إلا الدين فلنتشبث به لأنه طريق النجاة » ، وقد يكون الغزالى أراد بإحياء علوم الدين إحياء الأمل فى نهوض المسلمين ولكن هذا غير واضح على أى حال ، وكل ما أستطيع قوله بإخلاص أنك تقرأ « المنقذ » فى بداية حياتك لتجد الطريق الأمثل للإيمان والحياة الصالحة ، وتقرأ « الإحياء » إذا أحسست بقرب النهاية لتصل إلى السلام بسلام .

والكتاب ضخم ولكنه رغم ضخامته ممتع ؛ لأنك تحس أنك فيه مع رجل مخلص صادق أمين ، وأقسام الكتاب الكبيرة أربعة : قسم العبادات ، وقسم العادات ، وهو يريك فيه طريق المعاملات الشريفة على أساس الورع والتقى والدين الصحيح ، ثم قسم

المهلكات : وفيه يحذرك من مهالك النفوس ومعاطب الأرواح ، وقسم المنجيات : وهو طريقك إلى النهاية التى يرتجيها كل مؤمن .

وأجمل فصول الكتاب ذلك الذى يتحدث فيه الغزالى عن القلب وهو مركز الإحساس المؤمن الصادق ، إنه الضمير إنه صلتك بالله سبحانه ويقول « إن القلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله وهو العامل لله وهو الساعى إلى الله وهو الكاشف بما عند الله ولديه » ، لهذا القلب الصادق المؤمن الذى نسميه نحن الضمير الحى .

والتصوف عند أبى حامد تصوف إيجابى أى أنه انصراف عن دنيا الناس للبحث عن الطريق إلى الخلاص ، ولهذا فإن تصوف الغزالى لم يكن انقطاعًا عن الدنيا بل الخروج من متاعب حياة الناس إلى راحة القرب من الله ، ولهذا فهو لم ينقطع عن الدنيا أبدًا حتى وهو بعيد عنها فقلبه مشغول دائمًا بالناس ، وخلاص الناس ، ولهذا فقد كان الغزالى لا يطول اعتزاله بل يعود إلى الدنيا يهدى الناس كتابًا جديدًا .

والحق أن العالم الذى عاش فيه الغزالى كان عالمًا حزينًا حقًا ، وعالم الإسلام الذى عرفه وجاهد فى سبيل خلاصه كان عالمًا بشعًا لا يصدق من يراه أن هذه هى الأمة التى وعدها الله بأن تكون خير أمة أخرجت للناس إذا هى دعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، فلا هى دعت إلى الخير ولا أمرت بالمعروف ولا نهت عن المنكر ، فكانت أضعف أمة عرفها الناس ، ففى منتصف صيف ١٠٩٧ م نزل الصليبيون أرض الشام ليجدوا المسلمين فى أسوء حالة يمكن تصورها ، فالحروب دائرة بين بقايا السلاجقة والفاطميين ، وإنطاكية بيد حاكم أرمنى مسلم يسمى ياغيسيان ودمشق بيد أمير صغير وحلب بيد آخر والخليفة العباسى تحول إلى سيد إقطاعى له إقطاع صغير يعيش منه والفاطميون يملكون جنوب الشام ، وقبل نزول الصليبيين يحققون نصرًا (عظيمًا) فيستولون على بيت المقدس ، وعندما يسمعون بأن الصليبيين نزلوا بلاد الشام رحبوا بهم وظنوا أنهم يستعينون بهم على إخوانهم المسلمين ، ولكن الحقيقة تتكشف لهم عندما يرون أن الصليبيين سائرون نحو بيت المقدس فيسرعون بالانسحاب منها ـ وفى سنة ١٠٩٨ م يدخلون القدس ويقتلون فى يوم واحد ٧٠,٠٠٠ من المسلمين ، فماذا يفعل الغزالى المرهف الحس وهو يرى عالمه الإسلامى يتدهور إلى

هذا الحضيض ؟ هنا يشتد حزنه ولكنه لا يقنط قط من رحمة الله ، ودين الله لا بد أن ينتصر فى النهاية ، هكذا قال القرآن وكل ما فى القرآن صدق وحق .

وإلى طوس يعود الغزالى ليتدبر أمر المسلمين ، وفى ١٤ جمادى الثانية ٥٠٥ هـ / ١٩ ديسمبر ١١١٢ م يغادر هذه الدنيا إلى عالم البقاء ووصيته الأخيرة للناس : « لقد ضاعت الدنيا فلم يبق إلا الدين فتشبثوا به . واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ليعود لكم العز من جديد ، أيقظوا القلوب فإن القلب الصاحى هو طريق الخلاص » .

وبهذا القلب الحى أصبح أبو حامد الغزالى حجة الإسلام ومحيى الدين وأصبح فى نفس الوقت أعظم مفكر إسلامى تعرفه ـ وتعترف به ـ الدنيا ، فالمؤلفات عنه وعن فكره وآرائه مئات فى كل لغات البشر وهى تفوق كل ما كتبه الغربيون عن غيره من مفكرينا ، إنه عند أهل الغرب يقف فى أعلى مستويات البشرية ، وهو أجمل صورة بشرية للإسلام تعرفها الدنيا !

* * *

ابنُ حَزمِ القُرطُبِيّ
صَرخَةٌ فِي سُكُونِ اللَّيلِ

ما زلنا بعيدين جداً عن فهم حقيقة الأندلس : كيف قام ؟ وكيف عاش ؟ وكيف مات ؟ .. الغالبية العظمى منا لا تزال تنظر إليه على أنه حلم ليل شتاء قارس البرد طويل ، هذا الحلم يسميه الكثيرون بالفردوس المفقود ، الفردوس الذى أنشأناه فى عصر بطولتنا هناك على الأرض الأوروبية فيما وراء البحار ، وبعد أن أنشأه جيل الأبطال جاءت أجيال غير الأبطال تصرفت في الكنز الموروث تصرف السفهاء ، والهواية العربية المفضلة على طول التاريخ هى قتل بعضنا بعضاً هواية غريبة مارسناها من شباب تاريخنا إلى شيخوخة هذا التاريخ ، ولا زلنا نمارسها بإتقان عجيب إلى اليوم ، وانظر حولك وقل لى إن كنت أبالغ أن العالم كله يتعجب من مهارتنا فى هذه الرياضة العجيبة التى لا ينافسنا فيها غيرنا ، فقانون الدنيا خارج نطاقنا : أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب ، أما نحن فقانوننا الفريد فهو : أنا والغريب على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على أخى ، ثم تجىء بعد ذلك رائعة فلسفة الفناء العربية : أنا والدنيا كلها على نفسى ، والأوطان عندنا ضياع موروثة ننادى عليها ونتغنى بحبها ثم يمسك بعضنا بخناق بعض فلا تنتهى المعركة إلا وقد ضاعت الأرض وما عليها ، وهنا نبدأ فى البكاء عليها إلى آخر الزمن ، والبكاء على الأوطان الضائعة هو الإضافة العبقرية الوحيدة التى أضفناها إلى « ربرتورا » الموسيقى العالمية .

والأندلس هنا نموذج مثالى فتحناه فى أربع سنوات وضيعناه فى ثمانمائة ، وبكيناه إلى الآن أربعة قرون ، وفى نيتنا ـ بمشيئة الله ـ أن نظل نبكيه ملايين القرون المقبلة وعندما تقوم الساعة سنسبح إلى الجحيم الذى نستحقه فى بحر الدموع .

أنشأناه فى أربع سنوات (٧١١ ـ ٧١٥ م) ، ثم عدنا إلى رياضتنا المحببة : صيد بعضنا بعضاً ، القدماء منا فى الأندلس أخذوا يقاتلون الجدد ، والعرب يقاتلون البربر ، والعرب الشاميون يقاتلون العرب اليمنيين ، وكنا أيامها ـ أولاً عن آخر ـ مائة ألف مسلم فى الأندلس كله ، ومساحة الأندلس ٦٠٠,٠٠٠ كيلو متر ، ومع ذلك كان بعضنا يقول لبعض : اخرجوا عنا فإن بلدنا يضيق بنا ولا يحملنا وإياكم .

ومـرت أربع وأربعون سنـة ونحن نقـاتل بعضنـا بعضاً حتى إذا كنـا على وشك القضاء تداركتنـا رحمة الله بعبقرى حقيقى من بناة الدول هو عبد الـرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالـداخل إلى الأندلس ، جمعنا بعصاه وأقام لنا ومنا دولة ولدت فى (الخامس عشر من رمضان ١٣٨ هـ / ٢٢ فبراير ٧٥٦ م)، وكأنها فرصة العمـر أتاحها الله لنا بفضله ، وفى رعـاية تلك الإمارة الأموية عشنـا فى رغد وقوة وازدهار حتى أكرمنا الله بأعظم أمراء هذه الدولة وتاسعهم وهو عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله المعـروف بالثالث أو الناصر فى (صفـر سنة ٣٠٠ هـ / سبتمبر ٩١٢ م) ، فمضى بنا صعدًا فى القوة وجمع ما انتقص من شملنا ، وجعل الإمارة خـلافة فى أواخر (٣١٦ هـ / أوائل ٩٢٩ م) ، فأصبحت فى عالم الإسـلام بذلك ثـلاث دول خلافـة : العباسية والفـاطمية والأموية الأنـدلسية ، ومضى عبد الرحمن يحكـم وقد جمع شبه الجزيرة إلى لوائه حتى استتمت سنـوات حكمه ٥٠ سنة هجريـة وتوفى فى (٣ رمضان ٣٥٠ هـ / ١٧ أكتـوبر ٩٦١ م)، بعـد أن نقش اسمه بحـروف من نار ونـور على أنه أعظم وأقوى وأحكم وأقدر من تولى أمورنا من الخلفاء وأطولهم حكمًا ، فأما النار فلأن عبد الرحمن الناصر استخـدم لتوجيه دولته من القوة والعنف ما لم يعـرفه خليفة قبله وربما قام لـه فى ذلك عذر ؛ لأن داء التفرق فينـا عويص مـزمن ، وحكامنا الأقـوياء فى الماضى كانوا أشبه برجال مطافىء كلما أطفـأوا النار فى ناحية اشتعلت فى ناحية أخرى ، وأما النـور فلأن الأندلس فى أيـامه أضاء بنـور حضارى باهـر وصلت أشعته إلى قلب ألمانيا ، فأقبل ملوك الأرض إلى بـلاد الناصر يتأملون وراء هذا الملك الـزاهر والحضارة الوارفة التى لم تعرف لها الدنيا فى ذلك الحين مثيلاً ، وفى قاعة السفراء ذلك البهو الزاهر من قصر الزهراء الذى بناه فى مدينـة الزهراء على سطح جبل العروس المطل على قرطبة جلس الناصر يستقبل السفـراء فى أبهة ملوكية قـامت على العدل والجهد البـالغ ، وكان الناصر عجيبة بين حكام الإسلام ما وعد إلا وفى ، ومـا قال إلا صدق ، وما عاهد إلا كان عند عهـده ، إنما كانت شدته وعنفـه على الخارج على سلطان دولة الجماعـة الساعى فى تفريق عصا المسلمين .

وبعد النـاصر جاء ابنه الحكم المستنصر أعلم ملـوك الإسلام وأعدلهم جميعًـا بعد عمر بن عبد العزيز (٣٥٠ ــ ٣٦٦ هـ / ٩٦١ ـ ٩٧٦ م) الذى جعل الأندلس دار علم وفضل ، وتـراخت يـده بعض الشـىء فبـدأت الفتنـة تعـود ، وتطلع حكـام النـواحى

للاستبداد بنواحيهم وتجلى ذلك بعد وفاة الحكم المستنصر فى (٣ صفر ٣٦٦ هـ / ١٦ أكتوبر ٩٧٦ م) ، فقام طاغية سياسى يسمى محمد بن أبى عامر ونهض من صفوف الكتاب إلى صفوف العسكريين وقبض على زمام الملك من (٣٧٠ هـ : ٩١٧ م تقريباً) ، واستبد بالأمر استبدادًا تامًا من دون الخليفة الرسمى الصبى هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، وفى طريقه إلى السلطان المطلق ارتكب هذا الطارىء الطاغية كل جريمة وموبقة ، وإذا كان عبد الرحمن الناصر لم يغدر فى حياته بإنسان محسن مستقيم فإن محمد بن أبى عامر الذى تلقب بالمنصور لم يدع إنسانًا محسنًا مستقيمًا طموحًا إلا أطاح به ، واستغنى عن كبار رجال الدولة الذين كانوا سند الدولة الأموية ابناً عن أب عن جد ، وأنشأ لنفسه بطانة سوء من النهازين الغادرين ليعينوه على ظلمه وكسر وحدة جيش الأمة فأنشأ لنفسه جيشًا خاصًا به من مرتزقة البربر الذين جلبهم من المغرب وجمع حوله نفراً من الوزراء بعضهم من أصول طيبة وبعضهم من أصول خسيسة ، ومازال هذا الرجل يحكم حتى وافاه الأجل المحتوم فى (رمضان ٣٩٢ هـ / أغسطس ١٠٠٢ م) والبلد يضج من ظلمه وغدره وخلفه ابنه عبد الملك المظفر فى رياسة الحزب العامرى ورياسة الدولة حتى (صفر ٣٩٩ هـ / أكتوبر ١٠٠٨ م) وبعد سنتين فى (١٦ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩ م) انفجرت الثورة على العامريين وعادت الخلافة الأموية القرطبية عودة هزيلة ، وثارت الفتنة الأهلية بين جيش الدولة الأصيل القديم وجيش المنصور المرتزق ، واستشرت الفتنة وقامت ولم تقعد حتى نهاية الأندلس ، وغرق الأندلس فى بحار الفتنة واختفى فى ليل التاريخ الطويل .

***

مدخل لم يكن منه بد لكى نعرف أين وفى أى ظروف عاش وعمل أبو محمد على بن حزم .

فى أيام الطاغية محمد بن أبى عامر المنصور ظهر أمر بنى حزم ، وأصلهم من قرية صغيرة تسمى الزاوية من كورة (مقاطعة) لبلة Liebla على المحيط الأطلسى عند الحدود بين إسبانيا والبرتغال ، وهاجر أبوه بأسرته إلى قرطبة ودخل فى خدمة المنصور محمد بن أبى عامر وصار فى جملة وزرائه واكتسب من الوزارة مالاً كثيرًا اشترى منه

قصرًا فى شرقى قرطبة فى حى يسمى منية المغيرة ، وقصرًا آخر فى غربها عند باب الوراقين واشترى كذلك ضياعًا فى كورة لبلة واحدة منها فى قرية صغيرة تسمى منتليشم ، وإلى هذه الضيعة سيلجأ ابن حزم بعد يأسه من السياسة ويتفرغ للتأليف .

وفى أيام وزارة أبيه أحمد بن سعيد بن حزم ولد على بن أحمد بن سعيد بن حزم مدار حديثنا هذا فى فجر الأربعاء (٣٨٤ هـ / ٧ نوفمبر ٩٩٤) فى قصر أبيه فى منية المغيرة وتربى كما يقول فى بيت نعمة ومال كثير وخدم وحشم وأصل أسرته فى الغالب من عجم أهل الأندلس ولكنه يزعم أن بيته أموى بالولاء ويرجع نسبه إلى رجل يسمى سفيان بن يزيد كان مولى ليزيد بن أبى سفيان ، وهذه النسبة الأموية كانت بالنسبة لابن حزم مرضًا نفسيًا فقد ظل طول عمره يفخر ببنى أمية الأندلسيين ، ويتعصب لهم وهذا معقول فإن الأندلس الإسلامى لم ير العز إلا فى أيام البيت الأموى وبنهايته سنة (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م) ، بدأت نهاية الأندلس ولكن الذى لا نقبله من رجل فى عقلية ابن حزم هو تعصبه البالغ لبنى أمية عمومًا وهو تعصب يجعله فى إحدى صفحات « جمهرة أنساب العرب » من تأليفه يأنف أنفًا شديدًا من أن يقال إن واحدًا من أبناء عبد شمس ـ خصوم بنى هاشم ـ كان فقيرًا ، وفى كتاب آخر من كتبه هو « المفاضلة بين الصحابة » نجده يحاول الحط من مكان على بن أبى طالب وإن تبرأ من ذلك (ص ٢٣٦ وما يليها) .

ومن حسن الحظ أن أبا محمد على بن سعيد بن حزم كان كثير الكتابة عن نفسه ، فقد خلف لنا كتابًا جميلاً ـ سنتحدث عنه ـ يسمى طوق الحمامة فى الألفة والإلاف « أى فى الحب والمحبين » ، جاءنا فيه بكثير من تفاصيل حياته الأولى فى قصور أبيه ونشأته بين جوارى القصور قال : « ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى لأنى ربيت فى حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الشباب إلا وأنا فى حد الشباب وحين تبلغ وجهى (ظهر شعره) وهن علمننى القرآن ورويننى كثيرًا من الأشعار ودربننى فى الخط ولم يكن وكدى (همى) وإعمال ذهنى منذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدًا إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك وأنا لا أنسى شيئًا مما أراد منهن » (الطوق ص ٤٦) .

ومات أبوه سنة (٤٠٢ هـ / ١٠١١ م) والفتنة الأندلسية فى بدايتها واضطر إلى

مغادرة قرطبة عندما دخلها البربر أعداء بنى أمية وتتبعوا أنصار بنى أمية فذهب إلى بلدة فى شرق الأندلس هى المرية ليحتمى بمولى من موالى العامريين يسمى خيران ، ولكن خيران لم يطمئن إليه فأخرجه منها ، فلجأ إلى بلنسية حيث نادى الناس برجل من الأمويين هو عبد الرحمن بن محمد المهدى وبايعوه خليفة ولقبوه بالمرتضى ، فاتخذ ابن حزم وزيرًا ، وهى وزارة كما ترى جد هزيلة لأن المرتضى لم يلبث أن قتل ، وعاد ابن حزم إلى قرطبة حزيناً فى صحبة صديق له ، وفى رمضان (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) بويع لرجل آخر من بنى أمية يسمى عبد الرحمن المستظهر ، وكان شابًا نجيبًا يرجى منه خير ولكنه تولى فى غمار فتنة لا ترحم فعمل ابن حزم وزيرًا له شهورًا قليلة ثم أصبح وزيرًا لهشام المؤيد ، وزارة هزيلة أخرى ، وعندما نفى هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية وألغيت الخلافة الأموية الأندلسية نهائيًا فى (ديسمبر ١٠٣١ م) طلق ابن حزم السياسة وانصرف إلى العلم ، وكان هذا من حسن حظه وحظنا .

وكان ابن حزم قد دخل ميدان الطلب قبل ذلك بسنوات ، وكانت سنه عند دخول ميدان العلم بعد الثالثة والعشرين ، وقد دخل ميدان العلم فى ظروف هى أشبه بالمصادفة ولكنه عندما بدأ يقبل على العلم اكتشف نفسه وعرف أن العلم هو ميدان حياته وسبب وجوده ؛ فأقبل يلتهم الكتب التهامًا فقرأ كل ما تيسر له من تفاسير القرآن الكريم ، ودرس كل كتب الحديث من صحاح ومسانيد وكتب سنن وأربعينات ومستدركات وزوائد ، ثم درس اللغة والشعر والأدب واستبحر اطلاعه على تاريخ الإسلام ، وقد رزقه الله عقلاً راجحًا وذهنًا صافيًا وذاكرة لا أظن أننى عرفت لها شبيهًا فقد كان يقرأ الشىء مرة واحدة فينطبع فى ذهنه ولا ينساه ، وكان ذا عقل ناقد : يقرأ الشىء ويزنه بميزان منطقه أو يرفضه أو يستصفى منه ما يرى أنه ينفعه ، وقد درس على عدد كبير من الشيوخ أهمهم أبو عمر بن الجسور ، وأبو الخيار مسعود بن مفلت ، وهذا الثانى كان من أجلِّ الفقهاء وأوسعهم علمًا ، وفى أثناء الدراسة تنقل ابن حزم من المذهب المالكى إلى الشافعى واستقر فى النهاية عند رأى أهل الظاهر وشيخهم داود ابن على الظاهرى وهذه الجماعة كانت أبعد أصحاب المذاهب عن التفكير ، فهم يأخذون كل شىء على ظاهره فلديهم مثلاً حديث يقول : إن الكلب إذا ولغ فى إناء أحدكم فقد أصابه نجس ولا بد من تطهيره ، فإذا قيل لهم : فإذا ولغ فى الإناء خنزير فماذا يكون

الحكم ؟ قالوا : لم يرد فيه نص فلا تجب فيه طهارة ، وإذا قرأ أحدهم قول الله سبحانه فى أول سورة التكوير : ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ..** ﴾ إلى آخر الآيات وسئل فى تفسير ذلك قال : هى كما ترى ومعانى الألفاظ عندك فى معاجم اللغة ونحن لا نذهب إلى ما وراء ذلك ، وقد بيَّن هو فى كتبه الأسباب التى جعلته يطمئن إلى قول أهل الظاهر فقال : إن الفقهاء فرقوا أذهان الناس وخرجوا بهم عن القرآن والسُّنة عندما توسعوا فى استعمال القياس ، فأصبحنا نجد فى المسألة الواحدة عشرة آراء فما فوق فبأيها يأخذ المؤمن ؟ والتفسير الحقيقى لوقوف ابن حزم عند مذهب السُّنة هو أنه رفض كل الفكر الفقهى قبله واكتفى بالقرآن والسُّنة ، وهذا ظاهر من سأمه الدائم من المذاهب جميعًا .

ولم يقف اطلاع ابن حزم عند هذا الحد بل نظر فى كتب اليهود والنصارى واليونان وأحاط بكل ما فيها إحاطة نادرة ، وجعل فى أثناء ذلك يناقش العلماء ويناظرهم ولكن طريقته فى المناقشة كانت بعيدة جدًا عما أمر الله به فى كتابه العزيز فى أمر الدعوة والجدل ، فقد أمرنا الله بأن ندعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وأمرنا إذا تجادلنا أن نجادل بالتى هى أحسن ، ولكن ابن حزم لفرط ذكائه وسعة علمه وضيق صدره بما كان يسمع ويقرأ من سخف ، كان قد أصبح ذا صبر قليل على الناس فكان إذا جادل أو ناظر لم يكن له هم إلا تحطيم خصمه ، وفى ذلك يقول معاصره مؤرخ الأندلس الكبير أبو مروان حيان بن خلف بن حيان : « ثم عدل إلى الظاهر فنقحه وجادل عنه ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يرقد بتدريج بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه انشقاق الخردل ، فينفر عنه القلوب ويقع به المغلوب ، حتى استهدف إلى فقهاء عصره فمالوا عليه وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو منه فطفق الملوك يقصونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره من بادية بلدة لبلة ، وهو فى ذلك غير مرتدع ولا راجع : يبث علمه لمن ينتابه من بادية بلده من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، يسمعهم ويفقههم ويدارسهم ، وأكمل مصنفاته لم يجاوز عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها حتى لأحرق بعضها بأشبيلية ومزق علنًا » .

وابن حيان يبالغ هنا ولا شك ، وكان هو الآخر طويل اللسان عنيف النقد لا يكاد

يرحم من لسانه المرير أحدًا ويبدو أن العصر كله كان عصر مرارة وآلام وضيق نفس وخوف وصراع ، ولا عجب فنحن فى أيام فتنة وابن حزم لم يكن هادىء النفس زاهدًا فى الدنيا يائسًا من الناس ولم يكن ينظر إلى الوراء بل إلى الأمام كغيره من كبار فقهاء عصره ، بل خلق بطبعه إنسانًا حساسًا شديد الاهتمام بمصير الجماعة الإسلامية ، وفى كتاباته إشارات كثيرة جدًا إلى سوء الحال ووقوع رؤساء الأندلس فى الفتن والحروب حتى أضاعوا الأندلس ، وإذا كنا نأخذ عليه عنفه وحدة لسانه فلا بد أن نحمد له حماسته واهتمامه ونزوله الميدان يجادل عما كان يراه حقًا ، ولو أنه وجد أمراء الطوائف فى عصره من يستمع له ويعى مقالته فربما كان له أثر مباشر فى إنقاذ الأندلس ، ولكن ملوك الطوائف جميعًا كانوا من ناحية المستوى الإنسانى فى درجة من الهبوط لا تصدق ، وفى تلك الظروف التى ضاعت فيها الوحدة واشتد ضغط الخصوم من النصارى على البلاد واستولوا على بعض العواصم الكبرى مثل طليطلة والاشبونة ومجريط وقورية ، وانحدار حدود الأندلس الإسلامى إلى مجرى الوادى ، نجد هؤلاء السخفاء ملوك الطوائف يتهالكون على الدنيا ويسرفون فى اللهو إسراف الخلى الذى لا يخشى غائلة والمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة قبل سقوطها فى يد ألفونسو السادس ١٠٨٥ م ينفق مئات الألوف على قصر يبنيه فى طليطلة ويتألق فيه تألق كبار الملوك ، والمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ينشىء فى قصره حديقة يسميها حديقة الرءوس يجعل فيها من جماجم من يقتلهم من خصومه المسلمين أصصًا يزرع فيها الزهور وابنه المعتمد الشاعر المشهور يتخذ لجاريته اعتماد الرميكية ـــ وأصلها بائعة لبن ـ حديقة أرضها من المسك والعنبر المعجونين بالعطور لتسير فيها حافية كما كانت تفعل أيام الفقر وبيع اللبن والسير حافية فى الطرقات ، وأبو عبد الله الحائك وزير آخر بنى جهور يتخذ لنفسه دارًا خاصة بالغلمان يسميها بيت اللذة لكى ينعم فيها بشذوذه الحقير ، وباديس بن حبوس منشىء دولة بنى زيرى فى غرناطة سكير لا يكاد يفيق من الخمر ليل نهار ، وهذه مذكرات حفيده المعروفة باسم « التبيان » المشهورة عندنا باسم مذكرات الأمير عبد الله الزيرى فتحدث عن ذلك الانحطاط كله بأجلى بيان ، وأمامك كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام الشنترينى تجد فيه العجب من أمر أولئك الناس .

فى هذا المناخ الفاسد من يسمع لابن حزم أو يفكر فيما يقول ؟ ! لقد كان الرجل آية في الخلق والعلم والإيمان ، وكان قلبه يحترق على مصير وطنه الذى أحبه فأبغضوه وخافوه وصاروا يطردونه من بلادهم واحداً بعد الآخر ، وآخر من فتح له أبوابه رجل من الطارئين على الإمارة يسمى أحمد بن رشيق ، استقل بجزيرة ميورقة وهى كبرى الجزائر الإسبانية التى تعرف باسم البليار ، فذهب إلى هناك سنة (٤٣٠ هـ / ١٠٢٩ م) ومضى يجادل الفقهاء على مذهبه في العنف حتى قضى على فقيه البلد وكان رجلاً بسيطاً محدود العلم يسمى أبا الوليد بن اليارية الميورقى وكان مالكيًا ، وقد أراد هذا الرجل مجادلة ابن حزم مدافعًا عن المالكية فهوى عليه ابن حزم بكل ما أوتى من عنف وسفَّه رأيه وأظهر ضعف علمه بالحديث فغلط فى بعض ما روى ، فسجنه ابن رشيق حتى يتوب عن خطئه ثم أخرجه وقد هلك ومضى الرجل للحج فمات فى الطريق من شدة ما ناله من القهر .

ويبدو أن ابن رشيق أسف على ما فعل فأبغض ابن حزم وسجنه أيامًا ثم أخرجه من بلده فاتجه بعد ذلك إلى أشبيلية فلم يجد هناك من يسمع له فقرر الانسحاب من الدنيا ومضى إلى ضيعته فى منتليشم قرب لبلة قرب الحدود الجنوبية للبرتغال ، وهناك انقطع للتأليف ولم يعد يزوره إلا نفر من أصاغر الطلبة كما يقول ابن حيان ، وفى عزلته تلك قضى نحو عشرين سنة يكتب فى حماسة غريبة حتى بلغت مؤلفاته المعروفة لنا قرابة ٥٣ كتابًا ورسالة ، بعضها فى مجلدات كبيرة تصل إلى ثمانية مجلدات وبعضها فى أربعة ، ومنها ما لا يزيد على بضع ورقات وهى تغطى كل مجالات الفكر الإنسانى فيها فهو فقيه مؤرخ نسابة أديب وشاعر وناقد أدبى ، وصاحب تأليف مبتكر تفرد به بين أهل الأدب والفكر فى العصور الوسطى وهو كتاب « طوق الحمامة » وهو من أمتع ما تقرؤه عن الحب لولا صعوبة أسلوبه تجعل الوصول إلى ما يريد قوله عسيرًا بعض الشىء ، وبهذا الكتاب الصغير وصل ابن حزم إلى درجة جديرة فى الآداب العالمية ولا أظن أن كاتبًا عربيًا ذاع أمره هذا الذيوع فى العالم كله إلا ألف ليلة فهو مترجم إلى لغات العالم جميعًا وطبعاته ذائعة تجدها فى كل مكان فى طبعات شعبية (بيبر ـ باك) وأجمل ترجماته الإسبانية ، وقد قام بها الأديب المستشرق الأسبانى اميليو غرسية غومس ، وقدم للترجمة فيلسوف أسبانى معاصر كبير هو اورتيجا إى جاست (١٨٨٣ ـ

١٩٥٥) فقال فى مقدمته : إن هذا الكتاب وحده يدل على أن الأدب العربى جدير بالاحترام كله ، وإن قراءته إياه غيرت من نظرته إلى الفكر الإسلامى وهى شهادة لها قدرها من واحد من أعاظم مفكرى عصرنا .

وتوفى ابن حزم فى منفاه الذى ارتضاه لنفسه فى (٢٨ شعبان ٤٥٦ هـ / ١٧ يوليو ١٠٦٤ م) توفى صابرًا محتسبًا صافى النفس ويبدو أن علته التى مات منها كانت السرطان ؛ لأنه عانى من أوصاب المرض شيئًا كثيرًا وقد تحمل آلامه فى صبر وقال : « لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه وأعادنا إلى أفضل ما عوَّدنا ، إن الذى أبقى لأكثر من الذى أخذ ، والذى ترك أعظم من الذى تحيف ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التى غمرتنا لا تحد ولا يؤدى شكرها والكل منحه وعطاياه ولا حكم لنا فى أنفسنا ونحن منه وإليه منقلبون وكل عارية فراجعة إلى معيرها وله الحمد أولاً وأخيرًا عودًا وبدءًا وأنا أقول : إذا ما صح لى دينى وعرضى .. فلست لما تولى ذا اهتمام جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين » (طوق الحمامة ص ١٥٣) .

وهذه العبارة وحدها من ابن حزم تدل على أن ما نقرأه من نقده فى كتبنا مبالغ فيه ، ومن المعروف أن فقهاء السُّنة من أعنف الناس على من خاصمهم وخالف رأيهم أو نقد مذاهبهم ، وفى دراستى هذه تبينت من قسوتهم البالغة على خصومهم ما جعلنى أشك كثيرًا فى تقديراتهم ، وأنا ألتمس لهم العذر فى هذا العنف لأن خصوم السُّنة وأهلها كثيرون جدًا وكانوا فى الغاية من العنف والبعد عن الضمير ، ومعظمهم بعيدون عن الإيمان الصحيح ولم يكن هناك مفر لأهل السُّنة من اتخاذ هذا العنف كله ولولا تلك الصلابة لأصاب السُّنة والجماعة بلاء شديد ، ومذاهب السُّنة والجماعة هى الصخرة العاتية التى حفظت الإسلام خلال العصور السود التى مرت به وبأهله ، ولهذا فإننى أرجو القارىء أن يعيد النظر فيما يقول بعض العلماء من أمثال الحافظ الذهبى الذى قال فيه : « وقد امتحن هذا الرجل وشدد عليه وشرد من وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه واستخفافه بالكبار ووقوعه فى أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأحط محاورة وأبشع تمرد » حقًا إن ابن حزم عنيف جدًا فى مناقشته وعنفه هذا يتجلى فى مجادلاته مع أهل المذاهب فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، ولكننا إذا أمعنا القراءة وجدنا للرجل عذره فإن لهم وقفات طوالاً ومحاورات لا معنى لها عند نقط من الفقه لا تستحق

هذا العناد كله مثل جدلهم فى المسح على الخف وكلامهم عن الرأى فيمن يتبول واقفًا ، ولكن ابن حزم لم يهاجم قط واحدًا من كبار الأئمة ولا هو وقع بلسانه فى مالك أو أبى حنيفة أو الشافعى ، فهو لا يذكرهم إلا بإكبار أما مناقشته فللرأى فى ذاته ، وهنا لا نعيب عليه حدته فى دحض حجج مخالفيه فهذه هى طريقته وهذا مزاجه ويكفى ابن حزم أنه لم يفر من الميدان ولا هو لجأ إلى العزلة إلا مضطرًا ، وقد عرض نفسه ببسالته للكثير من الأذى وكان من الممكن جدًا أن يلقى حتفه ؛ فَلأَقَلّ من ذلك بكثير قتل غيره فهو فقيه مناضل ومفكر باسل وهذه هى الفضيلة الكبرى التى تجعل ابن حزم عَلَمًا فريدًا من أعلام الفكر فى تاريخنا .

* * *

ويعتبر ابن حزم من المفكرين المسلمين القلائل الذين يحتلون مكانًا صدرًا فى تاريخ الفكر العالمى ، ومكانه هذا لا يدانيه إلا قلائل آخرون أهمهم : أبو بكر الرازى الطبيب ، وأبو على بن سينا الفيلسوف ، والإدريسى الجغرافى ، وابن خلدون المؤرخ ، وابن رشد الفيلسوف ؛ وأبو القاسم الزهراوى الجراح .

والعمل الأكبر لابن حزم كتاب « الفصل فى الأهواء والملل والنحل » وهو أول تاريخ للأديان فى تاريخ الفكر العالمى ، وابن حزم فيه مؤرخ ومفكر من مستوى عالمى فعلاً ، فهو يبدأ بدراسة فكرة التدين ذاتها وكيف أن الإنسان بطبعه محتاج إلى عقيدة يطمئن إليها قلبه ويستعين بإيمانه فيها إلى مصيره فى هذه الحياة ، وهو لا يركز كلامه فيما يتردد عند عامة فقهائنا من أن الإسلام هو دين الفطرة بل يقول : إن الوثنية هى ديانة الفطرة الأولى وإن الوصول إلى التوحيد مرحلة فكرية عاليةً لم يصل إليها الإنسان إلا بهدى من الله ، وقد حاول كارل بارك Karl Barth أعظم اللاهوتيين فى عصرنا أن ينقض رأى ابن حزم ليقول : إن الوصول إلى التوحيد كان نتيجة للفكر الإنسانى فلم يستطع ، وتكلم ليفى شتراوس عن فكرة التوحيد وحاول أن يجد لها طريقًا عقليًا يمر بإخناتون فلم يوفق ، والمستشرق الأسبانى ميجل آسين بلاتيوس Mijuel Asin Palacias يقف هنا إلى جانب ابن حزم ، وفى ندوة كبرى عقدت فى السوربون سنة ١٩٤٦ قدم آسين رأى ابن حزم وحججه المنطقية ولم يستطع الصمود له كبار المفكرين الماديين الذين ينكرون النبوات والوحى جميعًا ، وآسين دون شك هو الرجل الوحيد الذى أعرف أنه قرأ ابن حزم كاملاً حتى كتبه الفقهية الخالصة مثل « الإحكام فى أصول الأحكام »

و « المُحلىّ فى الفقه المُعلى » وهى كتب فقهية لا يصبر على مطالعتها إلا أهل التخصص فى الفقه وكل هذه قرأها آسين بلاتيوس ، وكتابه عن ابن حزم ضخم يقع فى خمسة مجلدات وقد دخل به آسين عضوًا فى مجمع اللغة الإسبانى ، وقال يومها دوق إلبا رئيس المجمع : إننا نستقبل اليوم عضوين فى مجمع الخالدين ابن حزم القرطبى وآسين بلاتيوس . ومن ذلك الحين أصبح ابن حزم جزءًا من تاريخ الفكر الأسبانى وهذا شىء مستغرب لأن ابن حزم فى دراسته كلها يقف على أرض صلبة جدًا من الإيمان بالإسلام وكتاب الله وسُنة نبيه ، والمفكرون من أهل الغرب لا يقبلون هذا الموقف أصلاً ولكنهم قبلوه من ابن حزم لأن الرجل علامة متبحر فعلاً ، فهو يتحدث عن اليهودية حديث الدارس المتمكن ، وكلامه عن النصرانية كلام لاهوتى متخصص فى مذاهب النصرانية وهو يتدرج فى الكلام حتى ينتهى بك فى كتاب « الفصل » إلى الإسلام ، وهنا فقط يقول : إن الإسلام دين الفطرة ويورد الأدلة على أن الإسلام منحة الله الكبرى لأهل العقول .

وكنت أود أن أحدثك عن كتاب « طوق الحمامة » وهو رائعة ابن حزم فى الأدب الجميل المبتكر ولكنك لا بد قد قرأته أو عرفت عنه ما يغنيك ، وابن حزم فيه رجل صريح لا يخفى شيئًا فهو يقص عليك تجاربه فى الحب وعلاقاته مع النساء حديث المسلم العفيف ، فهو يؤكد لك أنه لم يرتكب معصية قط ولا قارف ما يغضب الله ، إنما هو رجل صادق قوى يتحدث دون خوف من الناس وحسبه خوفه من الله سبحانه .

ولكن صوت ابن حزم تردد فى ظلام ليل الأندلس ، فقد كانت الأندلس كلها قد اشتعلت نارًا واستسلم الناس فيها إلى اليأس وانقطاع الأمل وتركوا الأمور تجرى فى أعنتها إلا هذا القلب اليقظ والعالم المناضل الذى يبدو لنا بحياته ونشاطه وحماسته كرجل وجد الناس نياماً فأطلق شكاته تشق سكون الليل فتقلب الناس فى مضاجعهم وتململوا من هذا الذى حاول إيقاظهم من السبات فلعنوه وشتموه ثم انقلبوا على الجانب الآخر واسترسلوا فى نوم القرون .

* * *

أَبُو الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ : نُوْرُ الظَّلاَم
أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّىّ : ظَلاَمُ النُّورِ

عندما نصل إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى تنتابنا حيرة كبرى . فهذا هو عصر التدهور السياسى المحزن . إنه عصر البويهيين والقرامطة والفاطميين ، الذين زلزلوا قواعد الحكم فى عالم الإسلام ، الحاكم البويهى الديلمى المهيمن بسلطانه على خليفة المسلمين فى بغداد يصبح عمليًا رئيس عصابة لصوص ، وأموال الناس تجمع بالقهر وتنفق فيما يضر أمة الإسلام ، والقرامطة يغيرون على العراق والشام ومصر والحجاز ويسرقون الحجر الأسود ، والخليفة الفاطمى فى مصر والشام يضع أبشع نظام لاستخراج الأموال من الناس ، ومصر قبل الفاطميين كانت أكبر بلد صناعى فى عالم الإسلام . كنا نصدر للعالم كله ـ شرقًا وغربًا ـ ورق الكتابة من البردى ، ومصانع النسيج فى تنيس وشطا ودبيق كانت تصنع نصف النسيج المستعمل فى العالم العربى كله ، فأفنى الفاطميون ذلك كله ، والأعراب أحرقوا أشجار مصر والمقريزى يقرر ذلك عندما نقطع الأشجار تحترق الزروع .

هذه هى أسباب ما يسمى بالشدة أو المجاعة المستنصرية ، ومصر التى كانت تطعم العالم جاعت ، والخليفة الفاطمى جلس فى قصره على حصير وفى رجله قبقاب . جلس ينتظر رغيفين ترسلهما إليه إحدى المحسنات ، وبغداد مدينة النور أصبحت مدينة الظلام ، والخليفة العباسى أصبح موظفًا بويهيًا ، وفقيه لا يخاف الله يسمى أبا الحسن على الماوردى يكتب فى السياسة كتاباً يسميه « الأحكام السلطانية » ، يحلل فيه ولاية اللص والسارق والفاسق والمجنون ، وأهل العلم فى عالم الإسلام لا يعرفون إن كانوا يبكون أو يضحكون ، وفى شرق إيران تقوم دولة بويهية أخرى على رأسها ركن الدولة ، وتدخل فيها الرى وهمذان وأصفهان ، بعد قليل تقع الحرب بين ركن الدولة وديلمى آخر يسمى وشمكير بن زيار الديلمى ، كل البويهيين ينتسبون إلى الدولة إلا وشمكير هذا ، أخيرًا ينتصر ركن الدولة وأولاده يرثونه ، كل بلاد العراق وفارس تصبح قسمة بين فخر الدولة وعماد الدولة ويمين الدولة وزفت الدولة .

فى بلاد الموصل وحلب تقوم دولة عربية ذات صيت بعيد عندنا هى الدولة الحمدانية (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ / ٩٢٩ ـ ١٠٠٣ م) نحن نخدع أنفسنا فى أمر بنى حمدان هؤلاء ، وخاصة الفرع الحلبى الذى يتولاه سيف الدولة أبو المحاسن على (٣٣٣ ـ ٣٥٦ هـ / ٩٤٤ ـ ٩٧٧ م) ، هذا هو صاحب المتنبى الذى يزعمون لنا أنه كان يحارب الروم وينتصر عليهم ، ويقولون : إنه أنزل بالروم هزائم قاصمة واستولى على زبطرة وعرقة وملقية ، وهزم قسطنطين بن فردس الدمستق عند مرعش وأسره ، والحكاية كلها أقل من ذلك بكثير ، لأن قسطنطين هذا كان شابًا صغيرًا فى الجيش البيزنطى كان يخدم فى جيش الامبراطور « قسطنطين ليكابينوس » (٩٢٤ ــ ٩٤٥ م) فى فترة من أضعف فترات تاريخ الدولة البيزنطية ، والقائد فردس هو Pordas Damasticus ولم يكن من كبار رجال الدولة ، وستنهض الدولة البيزنطية بعد ذلك فى أيام قسطنطين السابع الملقب بلابس الأرجوان (٩٤٤ ـ ٩٥٥م) Porghyrs Genitus وتتمكن جيوشها من غزو بلاد المسلمين وعبور نهر الفرات والاستيلاء على أنطاكية فى الفترة الثانية من تاريخ الأسرة المقدونية ، وقد تمكن خلالها بعض أباطرة الدولة من أمثال نقفور فوكاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩ م) ويوحنا تسيصكيس الذى يسميه العرب يوحنا الشميشق (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) من غزو شمال الشام والتمهيد للحروب الصليبية وغزو الفرنجة لبلاد الشام .

كان هذا القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عصرًا عسيرًا على أهل الإسلام ، فقد وهنت فيه قواهم واشتدت الخصومات بين حكامهم حتى خيف على مصير الإسلام ، وزاد الخطر عليهم عندما انتقلت الدولة الفاطمية من إفريقية إلى مصر سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) واشتد الصراع بينها وبين الدولة العباسية ولا تسل عن سوء حال الناس فى ذلك العصر ، وسنرى أن تشاؤم أبى العلاء المعرى كان يرجع إلى حد كبير إلى سوء أحوال المسلمين .

* * *

ومن عجب أن هذا العصر بالذات حفل بعدد من فحول الشعراء الذين يعدهم النقاد قممًا للشعر العربى على مر العصور وإليك بعض الأسماء ــ وأنت تعرفها كلها ـ مع تواريخ حياتها :

أبو الطيب المتنبى (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ / ٩١٥ ـ ٩٦٥ م) .

أبو فراس الحمدانى (٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ / ٩٣٢ ـ ٩٦٨ م) .

الشريف الرضى (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ / ٩٧٠ ـ ١٠١٦ م) .

أبو العلاء المعرى (٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ ـ ١٠٥٨ م) .

أبو بكر أحمد بن محمد الصنوبرى المتوفى (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) .

وهؤلاء وغيرهم كثيرون يعدون من أعاظم شعراء العربية على مر العصور ، ولكن واحدًا من هؤلاء الكثيرين لم يشعر بالواقع الأليم الذى كانت تعيشه أمة الإسلام والعروبة فى ذلك العصر ، كما شعر به أبو العلاء المعرى ، بينما كان كل من ذكرنا من أهل المواهب الشعرية الباهرة قد انفصلوا تمامًا عن واقع أمتهم العربية ولم يهمهم فى شىء تعاسة الناس وانعدام الأمان على النفس والمال والأهل والولد وضياع الإنسان العربى وشيوع شكوك الناس وانتشار الآراء الضالة المضلة ، وانصرفوا عن ذلك كله كأنهم كانوا يعيشون فى كوكب آخر ، فأنفقوا ملكاتهم وأشعارهم فى غزليات كاذبة ومدائح شائنة استجداء للمال ، بل إن بعضهم مثل مهيار الديلمى ـ وهو عبقرية شعرية لا شك فيها ـ كان يقول القصيدة العصماء فى استجداء فرو خروف أو ثوب أو أكلة ثريد .

هنا نعرف قيمة أبى العلاء المعرى ، وهو بصدقه وإخلاصه وإحساسه المرهف بآلام البشر وإنسانيته التى تروع النفس ، يعتبر دون شك من أعاظم شعراء الإنسانية على الإطلاق ، فهذا الرجل الذى حرم نور البصر من سن الثالثة ، وشوه الجدرى وجهه حتى أصبح يخجل من أن يطلع بوجهه على الناس ، رزقه الله بصيرة منيرة يرى على ضوئها كل حقائق الحياة ، وفى حالته وحالة غيره من الشعراء يصدق قول الله سبحانه فى آية تروع النفس من سورة الحج ، وسآتى هنا بها وبآيات قبلها ليكتمل فهم القارىء لها وإحساسه بها ، فإنه لا يفسر القرآن إلا القرآن (٢٢ / ٤٥ ـ ٤٦) ﴿ فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِى ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىَ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا * أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ فأما

القرية التى أهلكها الله وهى ظالمة فهى إشارة إلى بلاد الإسلام التى ظلمت نفسها فسلط الله عليها الهلاك ، وبلاد الإسلام كانت بالفعل خاوية على عروشها ، والمسلمون هم الذين خربوها بأيديهم ، والبئر المعطلة إشارة إلى منابع الخير التى تعطلت بفعل الحكام الظالمين الذين يسكنون القصر المشيد ، وهو معطل أيضًا بسبب الدسائس والمؤامرات التى كانت تملأ الحجرات والأبهاء والدهاليز .

وأما الذين لم يسيروا فى الأرض ليروا الحقائق ويسمعوها ويتحدثوا بها فهم أولئك الشعراء والكتاب الذين عاشوا وماتوا فلم يروا إلا قصور الخلفاء والأغنياء التى وقفوا على أبوابها يتسولون وعيونهم مفتوحة ولكنها لا ترى من الحق شيئًا لأن قلوبهم فى الصدور عمياء ، إلا قلب أبى العلاء فهذا الرجل كان يرى ببصيرته المنيرة كل شىء ويحس كل شىء حتى آلام الحشرة الصغيرة كان يحس بها ، واسمع إليه يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به ... أبر من درهم تعطيه محتاجًا

كلاهما يتقى ، والحياة له ... عزيزة ، ويمنى النفس مهتاجًا

وهذا فى إحساسى .. أعظم شعر قاله إنسان . تصور أن أبا العلاء يدعوك إلى تسريح البرغوث الذى تظفر به يدك رحمة به ، وهو يرى ذلك من أعمال البر وهو أفضل عنده من الإحسان إلى محتاج بدرهم ، لأن البرغوث مسكين لا حيلة له فى إيذاء الناس بخرطومه الذى يدسه فى جسدك ليشرب دمك ، فهذه طبيعته وهكذا خلقه الله وهو إذ يفعل ذلك لا يشعر أنه يؤذيك وإنما هو يتقى الموت ويمنى النفس بالحياة مهتاجاً أى سعيدًا بها مقبلاً عليها ، مثله فى ذلك مثل المحتاج الذى ينتظر منك الدرهم ليأكل ويتقى الموت ، وأبو العلاء بمثل هذا الإحساس الإنسانى المرهف يرتقى عندنا إلى مستوى من الإحساس رفيع ، وهذا الإحساس هو الذى جعله وهو الكفيف البصر يرى حقائق الحياة حوله ويحس تعاسة الناس وظلم الحكام ويقول :

يارب أخرجنى إلى دار الرضا ... عجلاً فهذا عالم منكوس

ظلوا كدائرة تحول بعضها ... من بعضها فجميعها معكوس

وأرى ملوكًا لا تحوط رعية ... فعلام تؤخذ جزية ومكوس

واستمع معى إلى الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ تقول فى كتابها

البديع عن أبى العلاء المعرى (ص ٢٢٣) : فهو وحده ـ ولا أحد سواه ـ من يجرؤ على أن يصدع جبروت الحكام وطغيان الولاة بمثل قوله :

مل المقام . فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وتأمل معى قوله إن هؤلاء الأمراء هم أجراء الأمة التي يظلمونها ، فهذه مقالة رجل يفهم من شئون الحكم والحكام قدرًا لا يقل عما فهمه جان جاك روسو ، وفولتير ، وسان سيمون وكل مفكرى الثورة الفرنسية وعصر الأنوار .

واقرأ معى قول أبى العلاء :

يسود الناس زيد ثم عمرو ... كذاك تقلب الدولات دولة

ورب شهادة وردت بزور ... أقام لنصها القاضى عدوله

ومن شر البرية رب ملك ... يريد رعية أن يسجدوا له

أجل ، فالقاضى يقبل شهادة الزور ويستعين فى ذلك بشهود يعرف أنهم مزورون ، ولكنه يعتبرهم عدولاً أى أهل عدالة ، والحاكم يريد من الناس أن يسجدوا له .

لأمر ما أحس أن أبا العلاء يشير هنا إلى ملك مثل عضد الدولة البويهى وإلى قاضٍ مثل أبى الحسن الماوردى .

وهل نفذت بصيرة رجل إلى مثل ما وصلت إليه بصيرة أبى العلاء ، عندما قال ساخرًا من حكام العصر وفقهائه :

لم أرض رأى ولاة لقبوا ... ملكاً بمقتدر وآخر قاهرًا

هذى صفات الله جل جلاله ... فالحق بمن هجر الغواة مظاهرًا

كم قائم بعظاته متفقه ... فى الدين يوجد ـ حين يكشف ـ عاهرًا

وعلمت قلب المرء يغرق فى هوى ... دنياه . خاب مكاتماً ومجاهرًا

أتعرف سر قوة أبى العلاء وشجاعته ؟

لقد استغنى عن الدنيا والناس ، وزهد الراحة والنعيم ، أصيب بالعمى والدمامة وهو بعد فى الثالثة من عمره ، فانكب على العلم يدرس ويحفظ وقد رزقه الله عقلاً كله نور وذاكرة واعية لا نظن أن إنسانًا وهب مثلها ، كان يقرأ الكتاب الكبير مرة واحدة فيحفظ كل ما فيه : هكذا يقول المؤرخون ، وهذه مبالغة لا شك والحكايات هنا كثيرة جدًا وليس من الضرورى ـ لكى نعرف قوة ذاكرة أبى العلاء ـ أن نصدق أنه سمع مرة رجلين أعجميين يتشاجران بلغة تركية أو فارسية لا يفهمها ، فلما دعى للشهادة قص كل ما سمعه من كلام أعجمى كأن ذاكرته شريط تسجيل .

وبهذه الذاكرة وعى أبو العلاء كل علوم عصره وكل ما وصلت إليه البشرية من علم قبله ، ولكن الذى وهبه أبو العلاء من الإحساس الإنسانى كان أعظم لقد كان إحساسه الإنسانى مرهفًا يحس بكل شىء ، لقد أحس بدمامة وجهه بعد الجدرى فقرر ألا يتزوج ، لم يشأ أن يضايق أى امرأة أو جارية لا يعجبها وجهه وبعد فترة قصيرة من الشباب حاول فيها أبو العلاء أن يقهر سجن الظلام الذى فرضه القدر عليه ، اقتنع أن الحياة لا تساوى العناء فذهب إلى حلب ـ قرب قريته معرة النعمان ـ ليستصفى ما فى خزائن كتبها من علم ، وعاد إلى قريته ثم نهض مرة أخرى إلى بغداد حيث رأى علماؤها فيه عقلاً عجيباً وعلماً أعجب ، لقد اعترف الناس هناك بفضله وعلمه وتأكدوا أنه أعلم أهل زمانه وأشعرهم ، بهذه الشهادة وصل أبو العلاء إلى ذروة ما يطمح إليه رجل العلم ، فكَرَّ راجعًا إلى قريته حيث حكم على نفسه بالسجن فى بيته بقية العمر ، وقد طال عمره حتى نيف على الثمانين لهذا سموه رهين المحبسين ، كان الناس يزورون بيته من أقطار العالم الإسلامى ليروا عجيبة عصره علمًا وشعرًا ، كما كان أهل أوربا يزورون فايمار ليروا جيته عجيبة أهل الشعر فى عصره ، كان يقرىء الدروس على من يلم به من طلاب العلم La Poesie Andalovse Enarabe Elassique au xo Siécle La Ecat-ologia Musulmana en La Comedia Divina ويملى على كاتب له ما يشاء ، كان ذهنه خصبًا جدًا ومؤلفاته تعد بالعشرات منها هذا الكتاب العجيب الذى يسمى برسالة الغفران ، وهى عمل أدبى ممتع فريد فى بابه صاغه أبو العلاء فى صورة رد على رسالة بعث بها إليه رجل يسمى على بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح ، وابن القارح وجه إلى أبى العلاء بضعة أسئلة فى الأدب والفلسفة والدين والزندقة والتصوف وشئون

أخرى ، فصاغ أبو العلاء الرد فى صـورة أدبية رائعة لم يسبق إليها ، فقد تصور أن ابن القارح قام برحلة فى دار البقاء ليستجلى بنفسـه حقائق ماسأل عنه فركب جملاً كريمًا من جمال الجنة خلق من ياقوت ودر ، وسار فى الجنة على هواه أو على هوى الجمل يلقى أهل الجنة ، ورأى يوم الموقف وشهد ما فيه من هول وشناعة ، وقد أقام فى الموقف ستة أشهر ينتظـر الإذن فى دخول الجنة حتى أعيـاه الحر والتعب ، ثم تمكن من العودة إلى الجنة ولقى فيها نـاسًا وشعراء ، ثم قصد إلى النار فـركب دابة من دواب الجنة ومضى فمر فى طريقه بجنـة العفاريت (وهم جن مسلمون) ثم وصل إلى الجحيم فرأى إبليس مضطربًـا فى السلاسل والأغلال ، ويمـر فى رحلته تلك بعدد كبير من الشعـراء ورجال الأدب ، فرأى فى الجنة جماعة ممن كان يحسب أنهم فى النـار ، ورأى فى النار ناسًا كان يـرى أنهم لا بـد أن يكونـوا فى الجنـة ، فيسأل الأولين عن سبب الغفـران لهم ويسأل الآخرين عن سبب حرمانهم من الغفران ، فيقال له : إن هذا دخل الجنة ببيت من الشعر وذاك دخل النار ببيت من الشعر ، ولهذا سميت الرسالة برسالة الغفران .

والرسـالة ذات طابع قصصى جميل ، وأبـو العلاء يكشف فيها عن عـالمه الداخلى الغنى ، وهو عـالم مرح فيـاض بالدعـابة وخفـة الظل والذكـاء والفهم العميق لشئون الدنيا والناس وأسرار الوجود ، والكتاب مبتكر كلـه فى طريقته وأسلوبه وفكرته ، ولكنه عسير على الفهم ولهذا فإنى أنصحك ألا تقرأه إلا فى صحبة ناشرتـه ومحققته الدكتورة العلامة عـائشة عبد الرحمن ، التى أنفقت من عمـرها المديد ـ بإذن الله ـــ سنوات طوالاً أهدتنا بعدها النص الكامل المحقق لذلك العمل الفريد مع دراسات وشروح هى الغاية فى العمق والشمول .

ويحسب الكثيرون أن دانتى الليجيرى اقتبس فكرة الكـوميديا الإلهية من رسـالة أبى العلاء ، ولكن اثنين من أكابر الباحثين فى الغرب هما هنرى بيريس فى كتابه La Pa- sie Andagause en Arabe Elassijue aux, Siecle ، وميجيل آسين فى كتابـه عن صور قيام الساعة عند المسلمين والكوميديا الإلهية La Ssealelag, a Nusulmone en La Canedie Dioine أثبتا أن دانتـى لم يقرأ رسالـة الغفران ولا سمع بأبـى العلاء ، ولكن الذى حدث هو أن بعض صور الجنة والنـار فى رسالة الغفران دخلت فى تفاصيل قصـة المعراج التى بـدأت قصيرة فى حـديث معـروف رواه ابن عباس عـن عائشـة أم

المؤمنين ، ثم تطورت مع الزمن وانصبت فيها صور كثيرة جدًا من الأدب الشعبى العربى ، منها بعض الصور مقتبسة من رسالة أبى العلاء وبعضها مقتبس من رسالة « التوابع والزوابع » لابن شهيد الأندلسى وواحدة من تلك الصور الشعبية لقصة المعراج هى التى وصلت إلى دانتى فسطا عليها ونال بها المجد ، كما أثبت ذلك آسين بلاتيوس وأنريكو شيرولى ، وقد فصلنا أمر ذلك فى كتابنا عن تاريخ الأدب الأندلسى .

* * *

ولا أدرى لماذا أشعر كلما قرأت شيئًا من شعر أبى العلاء قفزت إلى ذهنى القصيدة الذائعة الصيت لتوماس فيرنز اليوت T . S . Eliat وهى الأرض اليباب أو الويست لاند والفرق بين حياة أبى العلاء وحياة ذلك الشاعر الإنجليزى الأمريكى المولد جسيم ، فقد كان أبو العلاء شقيًا بنفسه وبالدنيا والناس فى حين أن اليوت عاش ناعماً رخى الحال ، وإذا كان شعر الموت والضيق بالحياة طبيعيًا من أبى العلاء ، ويكفينا فخرًا بأبي العلاء أنه عبقرية عربية من أهل القرن العاشر فاقت بمراحل أعظم عبقرية شعرية غربية من أهل القرن العشرين فإن الأرض اليباب غير طبيعية من ت . س . اليوت ، ولكن العبقريات تتلاقى وقد لقى اليوت من الكرامة بقصيدته تلك أضعاف ما لقي أبو العلاء بشعره العظيم ، مع أنه دون شك أشعر وأعمق ، واليوت فى قصيدته متكلف مسرف في الإغراب ، وفى قصيدته أبيات إغريقية وأخرى لاتينية أو المانية أو إيطالية وهو يعرض فى كلامه علمه الواسع بالآداب واللغات ، وقد شقيت أنا بها زماناً حتى أسعفنى الحظ بترجمتها مع شروح فياضة قام بها الأستاذ الأديب العراقى مولدًا المصرى روحًا وخفة ظل الدكتور عبد الواحد لؤلؤة .

رحم الله أبا العلاء ، لقد عاش فى ظلام ومن الظلام عم الدنيا بأنوار قلبه وبصيرته ولم يكتف بحبس نفسه فى بيته بل حرم نفسه الزواج وحرم على نفسه أكل اللحم والبيض وشرب اللبن وأكل العسل ، لأن الحيوانات والأسماك فى رأيه خلقت لتعيش وتسعد لا لكي تذبح وتخرج من الماء فتختنق وتؤكل ، والدجاجة تبيض لنفسها لا للناس ، واللبن تصنعه الحيوانات لأولادها ، والعسل يخرجه النحل لنفسه ، فبأى حق نسطو على ذلك كله ؟ فاسمع لهذا الإنسان الصافى الرفيع يقول :

فـلا تاكلن مـا أخـرج الماء ظـالمًا ولا تبغ قـوتـاً من غريض الـنبـائح
ولا تفجعـن الطير وهى غـــوافـل بما وضعت فـــالظلم شر القبـــائح
ودع ضرب النحل الـذى بكـرت لـه كـواسب مـن أزهـار نبت فـوائح
فما أحـرزتـه كـى يكـون لغيرهـا ولا جمعتـه للنـدى والمنـائح
سحبت يـدي من كل هـذا وليتنى أبهت لشانـى قبل شيب المسـائح

وأبو العلاء فى البيت الأخير يأسف لأنه لم ينتبه إلى ذلك كله قبل أن يشيب شعره ، وأبو العلاء عـربى صميم من فرع من قبيلة تنوخ ، نـزل جنوبي حلب فى شمالى الشام وسكن قـرية معـرة النعمان ، واسمـه أحمد بن عبد الله بن سليمان ، ولـد ونشأ فى بيت كريم مـوسر وعاش خمساً وثمانين سنـة كلها نور وخير وبـركة للناس ، وكلهـا شقاء وتعب وحرمان له، وقد عبر عن رأيه فى الحياة ببيت من الشعر أمر بأن يكتب على قبره :

هـــذا جنـــاه أبـى علىّ ومـــا جنيـت على أحـــد

* * *

ومن أبى العـــلاء أنتقل بك إلى أبى الطيب أحمد بـن الحسين الجعفى المعـروف بالمتنبى (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ / ٩١٥ ـ ٩٦٥ م) ، وهو أشهر شعراء العربية على الإطلاق ، وكنت أحب أن أختصه بحديث وحده ولكننى ـ صدقنى ـ لم أجد عند المتنبى ما أملأ به حديثًـا كاملاً ، وهـذا ليس تاريخاً للأدب العـربى ، وإنما هو تاريخ للفكـر . ونحن هنا نبحث عن الأفكار الأصيلة النابعة من الإسـلام أولاً ، ثم من العروبة ثانيًا ، والآراء التى تعطى الفكر العـربى قيمته الحقيقية وهـذا هو ديوان أبى الطيب بين يـدى أقرؤه ربما للمرة العاشرة وهو حافل بالشعر العظيم البليغ الرنان ، فإن الرجل قد وُهِبَ ملكة فريدة جدًا فى صناعة الشعر وكان مثله فى ذلك مثل أبى العلاء غاية فى الاطلاع والعلم والذكاء ، وكان إلى جانب ذلك رجلاً فخمًا عظيم الهيئة جميل الصورة وفارسًا نجدًا يبهر العيون ، ولكن شعره العظيم كلـه يدور حول موضـوع واحد هو أبو الطيب المتنبى ، فقـد عاش الرجل فى الدنيا وكأنه ينظر فى مرآة ليس فيهـا إلا رسمه ، والدنيا كلها عنده حاشية على

حياته ، ومهما تقرأ من شعره فأنت لا تجد فيـه إلا المتنبي ، وهو يفخر بنفسه من مطلع الديوان إلى آخره وليس فى قلبه مكان لغيره من البشر وأبو العلاء كان يقول :

فــــــلا هطلـت علي ولا بـأرضـى   سحـــــائب ليس تنتظم البـــــلادا

أما أبو الطيب فيقول :

ملث الغيث أعطشهـــا ربـــوعـــا   وإلا فــــاسقهـــا السم النقيعـــــا

رجل يقول : إذا لم تمطر السماء على البشر أجمعين فأنا لا أريد المطر ، ورجل يقول اللهم أحـرق الأرض وأعطش أهلهـا أو اسقهم السم ، رجل أخـرج النـور من الظـلام ، ورجل أخرج الظلام من النور .

***

وقد وهب الله أبـا الطيب المتنبي ملكة شاعـرية لا أظن أن أحدًا من العـرب قد وهب مثلها ، فهـو يأتى فى شعره بما يشبـه المستحيلات ، وقـد سبق أن أوردت من شعره فى سياق كـلامى عن أبى بكر البـاقلانى كيف استطـاع أن يصنع من اسم عضد الـدولة البويهى وألقابه كلها شعرًا صحيحًا حيث قال :

أيـا شجـاع بفـارس عضـد الـدولـة   فنــــــاخسرو شهنشـــــــاهــــــا

أســــاميــــا لم تــزده معـــرفـــة   وإنما لــــذة ذكـــــرنـــــاهــــــا

والبيت الأول هنا لا يتصور أحـد كيف صاغه هذا الرجـل ، والبيت الثانى يريك أن المتنبي أعجبه من نفسه أنه استطاع صياغة هـذا البيت فقال : إنما لذة ذكرناها ، وكأنه يريد أن يقـول هنا : إنما صغت هذا البيت لذة أو تلذذًا ، وهذا بـدوره يكشف عن ناحية أساسيـة فى فهم المتنبى وهى أن شعره لا يصـدر عن القلب إلا فى النادر ، فهـذا الرجل الذى يعتبره الكثيرون رمز العروبة أو لسان قوميتهـا ، قال هذا الشعر فى مدح عدو من كبار أعداء العروبة والإسلام وهو عضد الدولـة بن بويه ، فقد كان فارسيًا لحماً ودماً ، وكان مسرفًا فى دعـوة الشيعية الفارسية ، والإسلام محا رسم كسرى شـاهنشاه فجاء

هذا الشقى وأراد وضع شاهنشاه على رقاب أهل الإسلام ، ومع ذلك فقد كان يخدم الخليفة العباسى رمز السنة والجماعة وكانت دولة البويهيين كلها دولة « كفرة فسقة روافض » وليس هذا كلامى وإنما هو كلام فقهاء السُّنة المعاصرين لعضد الدولة ، ولا أدرى كيف رضى شاعر العروبة أن يهين نفسه بمدح هذا الرجل وأمثاله ، بل إنه مدح بشعره رجلاً تركيًا أو فارسيًا لا يكاد يفهم العربية واسمه تلِير بن تشكروز ، وقد كنا نستنكر منه مدحه لكافور الإخشيدى طلبًا للمال ، ولكن ما ذنب أهل مصر حتى يهوى عليهم بلسانه ويقول فيهم ما لم يقله أحد فيهم ؟

تركنا أرض مصر لكل فدم ... له باع يقصر عن ذراع
نفوس لا تليق بها المعالى ... وأخلاق تضيق عن المساعى
أقمت بها ومن محن الليالى ... مقام الأسد فى كهف الضباع
أقول ـ وقد ناوا ـ بعدًا وسحقًا ... لشر الخلق فى شر البقاع

فإذا قلنا ـ على مذهب الكثيرين ـ إنه لم يذم بهذا الشعر أهل مصر بل حكامها إذ ذاك من الكافورية والإخشيدية ، فماذا نقول فى قوله إن مصر شر البقاع ، وقد كانت فى ذلك العصر أوفر بلاد الإسلام أمنًا وخيرًا ؟ ولكنه المتنبى الفياض القلب بالكراهية للناس أجمعين ، وأنا أعرف أننى أفجع بمثل هذا الكلام ناسًا كثيرين ممن ما زالوا يقولون : إن المتنبى شاعر القومية العربية وقد غضب علىَّ شيخنا محمود محمد شاكر لأقل من ذاك بكثير ، ولكنى أجد أن مؤرخ الأدب العربى فى عصرنا وهو شوقى ضيف يخرج الجزء الخامس من تاريخه العظيم للأدب العربى فى قرابة ٨٠٠ صفحة ، فلا يمنح المتنبى منها إلا تسع صفحات ، وهو يذكره ضمن شعراء المديح ولو استطاع شوقى ضيف أن يقول أكثر من ذلك لقال ولكنه لم يجد ، والحقيقة التى تخرج بها من ديوان المتنبى أن شعره كله مدح فى نفسه ، وأياً كان موضوع قصيدته فلا بد أن يدور فى نهاية الأمر على شخصه ، وهو يزعم لنفسه أن الله لم يخلق شاعرًا سواه .

* * *

فَلَاسِفَةُ الْعَرب :
وَضَعُوا الْفِكْرَ الْعَرَبِىَّ فِى صَمِيمِ الْفِكْرِ الإِنْسَانِىّ !

هنا فى عـالم الفلاسفة لا بـد لنا من الحذر البالغ ، لا بـد أن تعرف أين تضع رجلك قبل أن تخطـو لأنك هنا فى معبـد جليل له طقـوسه ولغتـه ومصطلحه وكهنتـه أيضًا ، وبعض كهنة معبد الفلسفة يطلبون إليك أن تخلع نعليك وتتوقر وتتأدب وتتهذب وأولى قواعد هـذا التأدب هى أن تترك خارج المعبد لغتك التى تعـودت أن تستعملها وتستبدل بها لغة الفـلاسفة ، وليس من الضرورى أن تفهمها المهم أن تستعملهـا ولن تكون أول من يفعل هذا فقد سبقك إليه الدكتـور فاوست عندما أغواه مفيستو فيليس اللعين ورد عليه شبـابه ووضـع فى كفه يد هيلين لتمضـى به فى عـالم المتعة واللـذات والضياع فى النهاية ، فقد قال له : لا بـد أن تتكلم اللاتينية لا تقل الأرض ، بل قل تيرا ساكرا ولا تقل السماء بل قل كويليـو لازولى ، لأننا فى عالم الفـلاسفة هـذا إذا جهلنا شيئًا وضعنـا له مصطلحًا لاتينيًا عجيبًا يخفى جهلنـا ، وهذا هو يا عزيزى هو الهوكـوس بوكوس وهو مفتاح السعادة ورأس الحكمة .

ومعبـد الفلسفـة ولد إغـريقيًـا وسيظل إلى الأبـد إغـريقيًا فى روحـه ومصطلحـه وموضوعاته ، والأربعة الكبار فى تاريخ الفلسفة الإغريقية الذين عرفهم العرب وترجموا لهم وتأثروا بهم كـانوا إغريقـاً وثنيين ولم يعرفوا إلا الإغريقيـة والوثنية ، وكـان جهد فلاسفة العرب منصبًا على إدخالهم الإسلام وتعليمهم العربية فلم يوفقوا فى ذلك وظلت الفلسفة فى جملتها شجرة غريبة فى تربة الفكر العربى ، ولهذا فلم يكن لها فيه أثر يذكر والذى حـدث هو العكس : فلاسفـة العرب هاجـروا بفكرهم إلى عالم الغـرب وأصبحوا مفكـرين عـالميين ، أولئك هم : سقـراط ، وأفـلاطـون ، وأرسطـو ، ثم أفلـوطين وهـو بلوتينوس الإسكندرى وهو مصرى إسكندرانى عاش بعد الميلاد فيما بين سنتى (٢٠٥ ٢٨٠ م) وإليه تنسب الأفلاطـونية الجديدة أو التيوبـلاتونيزم وقد عـاش وثنياً ومات وثنياً ولكن أثـره فى الفكر المسيحى الوسيط عظيم وقـد عرفه الناس عن طـريق تلميذه

فورفيريوس الصورى وقد تأثر به اللاهوتيون المسيحيون تأثرًا عظيمًا ، وكذلك كان له الأثر البعيد عند فلاسفة الإسلام ونحن مدينون فى معرفة ذلك للدكتور عبد الرحمن بدوى وكتابه الجليل « أفلوطين عند العرب » هؤلاء الأربعة الكبار هم شيوخ فلاسفة المسلمين ، وأنت لا تفهم الفيلسوف المسلم إلا إذا عرفت أستاذه اليونانى ، فابن سينا مثلاً أخذ أفكاره الفلسفية من كتب أفلاطون ، ولكى تفهم ابن سينا لا بد أن تعرف أفلاطون وكتبه ولغته ، وابن رشد كان مفتونًا بأرسطو ولا سبيل لك إلى فهم ابن رشد إلا إذا عرفت أرسطو وآراءه ولغته ومصطلحه ، ونتيجة هذا أن فلاسفة العرب اجتهدوا فى إنشاء لغة عربية فلسفية خاصة بهم وهى لغة عسيرة لم يبتكروها هم بل ابتكرها لهم المترجمون السريان أو نصارى الحيرة الذين تولوا نقل عيون كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية مثل : يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن إسحاق ، وقسطا بن لوقا ، وإسحاق بن حنين ، وهؤلاء كانت لغتهم العربية ركيكة جدًا بل هى أحياناً ليست عربية أصلاً فهى لغة خاصة تستطيع أن تسميها جريكو ـ آراب أو جريكو ـ سيرياكو آراب ، وقد تأثرت كتابات فلاسفة العرب بهذه اللغة فجاءت عربيتهم عسيرة على الفهم وهذا كان فى جملة الأسباب التى زهَّدت جمهور المسلمين فى الفلسفة .

والفلسفة كلها كانت ضرورية ونافعة قبل الأديان السماوية ؛ لأنها كانت السبيل العقلى الوحيد لمعرفة أسرار الكون والوجود ، أما بعد الأديان وبالنسبة للمسلمين خاصة فلم تعد لها وظيفة فإن الإسلام فى ذاته نظام عقلى كامل وسبيل واضح لفهم أسرار الكون والحياة والموت ، ومن هنا فقد أصبحت الفلسفة كلها بالنسبة للمسلمين العارفين بأمور دينهم ترفاً عقلياً لا لزوم له ، ومن سوء حظ الفلسفة أنها دخلت عالم الفكر الإسلامى فى عصر تكاثرت فيه الزندقات والآراء الضالة وانحرافات غلاة الشيعة ودسائس المجوس ومن إليهم فاندرجت فى نظر أهل السُّنة والجماعة ضمن الأخطار الكبيرة على الإسلام وأهله ونفروا منها نفورًا شديدًا حتى قال بعضهم : إن الفلسفة مشتقة من السفه وهذا بدوره جعل طريق الفيلسوف شاقًا وعسيرًا وخطرًا فى عالم الإسلام ..

ولكن المسلمين فى عصر النهوض الفكرى العظيم لم يستطيعوا تجاهل الفلسفة فإن الإسلام أدخل فى نطاقه بلادًا كثيرة كانت أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو تدوى

فيها كالطبل ، والدنيا كلها كانت تقول : إن أرسطو هو المعلم الأول ، والفكر الإسلامى فى عصر السيادة كان متعطشًا إلى المعرفة ، فاقتحم عالم الفكر اليونانى وعرف كبار الفلاسفة ، وبعد أن أنشأ المأمون دار الحكمة تدفقت المعرفة الفلسفية فى ميدان الفكر الإسلامى تدفقًا وأقبل عليها الناس يدرسونها ويستكشفون ميادينها فوجدوا بالفعل أن مفكرين من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو جديرون بكل احترام ولهم نظريات وآراء وسبل إلى المعرفة تؤيد الفكر الإسلامى وتزيده غنى وثراء ، فقد كان أولئك الفلاسفة الكبار رجالاً أفاضل آتاهم الله عقولاً نيرة وأخلاقًا فاضلة ومذاهب فى الحياة جميلة وخاصة فى نواحى التأمل وطلب المعرفة عن طريق الفكر والمنطق والخلوة والزهد فى مطالب الجسد ، لأن الإنسان إذا طوع شهوات جسده لمطالب عقله وروحه ازدادت بصيرته نفاذًا ، ومن هنا فقد اندفع نفر من طلاب المعرفة المسلمين نحو الفلسفة الإغريقية اندفاعًا شديدًا فقد رأوا فى تساميها على المادة عوناً لهم على صفاء النفس وسلامة الاعتقاد ، والفارابى عشق أفلاطون لأنه كان بطبعه ميالاً إلى الزهد فى الدنيا والخلوة بنفسه والتأمل ، ومن هنا فإن الباب الواسع الذى دخلت منه الفلسفة اليونانية ميدان الفكر الإسلامى هو باب الزهد فى الدنيا وطلب السمو النفسى عن طريق التأمل .

ثم إن الفلسفة اليونانية لم تدخل ميدان الفكر الإسلامى وحدها ، بل دخل معها من الفكر اليونانى الرياضيات والطب والهندسة وكل ما كان يطلق عليه اسم علوم الأوائل .

وإذا كان القليلون من الناس يحتاجون إلى الرياضيات فإن البشر جميعًا فى حاجة إلى الطب والدواء والعلاج ، ومن هنا فقد كان معظم فلاسفة المسلمين رياضيين وأطباء وبفضل الطب عاشوا ونجوا من الهلاك ، فالفارابى وابن سينا وابن طفيل وابن باجة وابن رشد كانوا أطباء ، وبسبب الطب رعاهم الملوك ولم يسمعوا إلى كلام الوشاة فيهم إلا فيما ندر .

ومن أسعد المصادفات التى أعانت الفلسفة على تثبيت أقدامها فى عالم الإسلام قيام دولتين من عظيمات دول الإسلام فى المشرق هما الدولة السامانية والدولة الغزنوية ، وقد قامتا فى ظل الدولة العباسية على مذهب أهل السنة والجماعة فى إيران وما يليها شرقًا من بلاد أفغانستان وشمالاً من بلاد ما وراء النهر ، فأما الدولة السامانية

فتدخل فى عداد الدول الفارسية (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ ـ ٩٩٩ م) وقد مدت نفوذها على إيران وما وراء النهر ، وهى فارسية الاسم ولكنها عربية الروح سُنية المذهب ، وكان للكثيرين من سلاطينها ميول أدبية فكرية واشتهر الكثيرون منهم بسلامة الاعتقاد والإخلاص للإسلام على خلاف البويهيين ، وفى ظلهم عاش الفردوسى وكتب الشاهنامة بالفارسية ، وابن سينا الذى نال عندهم المنزلة الرفيعة ، وفى رعايتهم كتب مؤلفاته العظيمة ، ومثله فى ذلك أبو بكر الرازى الطبيب وهذان بالإضافة إلى أبى القاسم الزهراوى الأندلسى هم أعاظم أطباء الدنيا خلال العصور الوسطى كلها ، وفى أيام هذه الدولة أيضًا عاش وأزهر وألف أبو نصر الفارابى .

وأما الدولة الثانية فهى دولة الغزنويين وهم ترك خلفوا السامانيين فى شرقى إيران وما وراء النهر ثم دفعهم الصراع مع السامانيين إلى دخول الهند فهم أصحاب الفتوح العظيمة هناك وهم الذين وضعوا الأساس المتين للهند الإسلامية وهم منسوبون إلى غزنة من بلاد أفغانستان وقد دامت دولتهم فى أفغانستان والهند طويلاً (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ / ٩٦٢ ـ ١١٣٦م) وهم أتراك من أهل السُّنة والجماعة أيضًا ، وفى ظلال هؤلاء عاش وعمل علماء وفلاسفة كثيرون ذكرنا من بينهم أبا الريحان البيرونى .

ولن ندخل هنا فى تفاصيل فلسفات الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد فهذا مطلب عسير علىَّ ولا أنا أستطيعه وله أساتذته ورجاله ، ولكنى أقول بصفتى طالباً من طلاب المعرفة وخادمًا لها : إن الذى خرجت به بعد القراءات الطويلة هو أن أهمية الفلسفة فى تاريخ الفكر العربى والإسلامى ترجع فى المكانة الأولى إلى أشخاص الفلاسفة فربما لم يكن للفارابى وابن سينا مثلاً أثر يذكر فى صلب الفكر الإسلامى ولكنهما يعتبران رغم ذلك قمتين من قمم المجد فى تاريخ الفكر الإسلامى ، فقد كان الرجلان كما سنرى على خلق عظيم وإيمان بالإسلام ثابت ولهما صورة إنسانية مشرقة يزهى بها تاريخ الفكر الإسلامى وإذا كانا لم يوفقا إلى زرع شجرة الفلسفة فى التربة الإسلامية فقد نجحا إلى حد كبير فى إضفاء ثوب إسلامى على أفكار أفلاطون وأرسطو وتم لهما ذلك نتيجة للجهد العظيم الذى بذلاه فى التوفيق بين مذاهب الفلاسفة وعقيدة الإسلام ، وعلى الرغم من سوء ظن عامة أهل السُّنة فى الفلاسفة عامة فإن الفكر الفلسفى الإغريقى دخل الفكر الإسلامى وكان له الأثر الطيب فيه ، وإن كان هذا الأثر

محدودًا ، وأهل السُّنة وإن نفروا من أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو فإنهم أخذوا عنهم الكثير من المنطق ومنهج الفكر وقوة الحجة وصحة القياس وإذا أنت قرأت شيئًا من كتابات الفارابى وابن سينا عن أفلاطون وأرسطو خيل إليك أن هذين كانا مسلمين بالخلق والشخصية وأسلوب الفكر واحترام الرأى ونزاهة النفس ومثل هذا يقال عن ابن طفيل وابن باجة وابن رشد فى الأندلس .

وليس أدل على عظيم تأثير الفكر الفلسفى على الفكر العربى من أن المدرسة الفلسفية أخرجت فى عصرنا هذا من أعلام الفكر أضعاف ما أخرجت المدارس الأدبية أو التاريخية ، ولطفى السيد ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وإبراهيم مدكور ونجيب محفوظ وزكى نجيب محمود والشيخ عبد الحليم محمود وفؤاد زكريا وجورج شحاتة قنواتى وعبد الرحمن بدوى ومحمد عبد الهادى أبو ريدة وأنيس منصور وتوفيق الطويل وحسن الساعاتى وعلى عبد الواحد وافى ، كل هؤلاء وغيرهم كثيرون من مؤسسى الفكر العربى الحديث تكونوا فى مدرسة الفلسفة فلابد أن دراسة الفلسفة فيها شىء لا يوجد فى غيرها من الدراسات .

والحق أن المسلم الحق لا يحتاج إلى الفلسفة ليفهم شئون دينه ولكنه يحتاج إليها فى ضبط منطقه وصقل ذهنه وتوسيع أفقه وتصويب تفكيره وهذا هو الذى غاب عن أهل السُّنة والجماعة عندما نفروا من الفلسفة وحاربوها ، فقد حسبوها فى مجموعها محاولة للتشكيك فى حقيقة الدين والوحى والرسالات أو حيلة للقضاء على الدين نفسه بمحاولة الوصول إلى حقائق الوجود عن طريق آخر غير طريق القرآن فرفضوها واعتبروها خطرًا على الدين ، وهم على حق فى هذا الموقف إذا ذكرنا ما تعرض له الإسلام من تدبيرات وأخطار جاء بعضها من داخل أمة الإسلام وبعضها الآخر من خارجها مما ملأ قلوب أهل السُّنة والجماعة بالفزع ولم يعد لديهم من هدوء النفس أو حسن الظن بالدنيا والناس ما يأذن لهم فى أن يستمعوا إلى كلام فيلسوف يتحدث فى لغة هى أقرب إلى الألغاز أو شطحات غلاة الشيعة .

ومن هنا فإن الفلسفة لم يكن لها من وجهة النظر الإسلامية وجود حقيقى فى تاريخ الفكر الإسلامى ، ولكن فلاسفة المسلمين بما تميزوا به من فكر سوى وخلق متين وزهد فى الدنيا وإقبال على كل ما يرتفع بالروح عرفوا كيف يوسعون لفلسفاتهم مكاناً رحبًا فى تاريخ الفكر الإنسانى .

وهذا هو الذى يعنينا فى هذه الدراسة ولهذا فإننا سندير الكلام هنا على خمسة من فلاسفة المسلمين بهروا الدنيا بمناهجهم فى الحياة والتفكير وما ألفوا من كتب جليلة وكذلك النتائج الباهرة التى وصلوا إليها على رغم ما زعمه إيرنست رينان وأمثاله من أن الفكر الإسلامى والشرقى عامة غير خلاق أو مبدع بطبعه وتلك دعوى واهية فندها وأحسن الرد عليها إبراهيم بيومى مدكور بمنطقه الرفيع وأسلوبه السهل الممتع .

ونبدأ بالكلام على الكندى أبى يوسف يعقوب بن إسحاق المتوفى (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) فيلسوف العرب الأول وهو رجل فاضل ونفس متعطشة أبدًا إلى العلم والمعرفة ، ولد فى الكوفة فى بيت عربى كريم فأبوه كان فيما يقال عامل الكوفة ومعظم المؤرخين ينسبونه إلى شجرة ملوك كندة ، وفى الكوفة درس ونضج ذهنه وظهر أمره ثم مضى إلى بغداد واتصل بالخليفة المأمون وحظى برعايته واستهوته علوم الأوائل فدرس الرياضيات والهندسة والموسيقى والطب وأقبل على ما وجده فى دار الحكمة من كتب فلاسفة اليونان يلتهمها التهامًا ، ودار الحكمة معبد علمى أنشأه الخليفة المأمون للقيام بنقل علوم الأوائل إلى العربية على أيدى مترجمين ذكرنا بعضهم ، وكانت مذاهب الاعتزال فى أوجها فدخل فيها ولكن أمره لم يشتهر بين كبار المعتزلة ، وأقبل على التأليف فكتب رسائل كثيرة جدًا فى الرياضيات والهندسة والطب والنجوم والموسيقى ، ويقال إن عدد مؤلفاته بلغ حوالى ٢٨٠ مؤلفًا لم يبق لنا منها إلا رسائل قليلة منها رسالته إلى الخليفة المعتصم ورسالة أصغر كتبها لولى عهده أحمد وقد نشر الرسالتين مع دراسة طيبة الدكتوران أبو ريدة والخضيرى ، وهو يتكشف فى هاتين الرسالتين عن افتتان بالأوائل وعلومهم وبالفلسفة بصورة خاصة ، فهى عنده صناعة الصناعات وحكمة الحكم وهى علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ، وغرض الفيلسوف هو الوصول إلى الحق عن طريق الفكر والتأمل والعمل ، ولكنه أغضب أهل السُّنة عندما قال : إن الفلسفة هى الجهد الذى يبذله الإنسان حتى تماثل أفعاله قدر استطاعته أفعال الله .

وقد جعل الكندى حياته عملاً كلها فهو لم يقتصر على الفلسفة بل درس الموسيقى وأتقن العزف وألَّف فى العلم الموسيقى ودرس الطب ومارسه وبرع فيه واشتغل بصناعة الأدوية وعالج صناعة السيوف وتكلم فى البصريات ، وهذا الجهد العظيم هو الذى طار باسم الكندى إلى أهل الغرب فى العصور الوسطى وبعض كتاباته التى ضاعت أصولها العربية نجدها اليوم فى ترجماتها اللاتينية .

والكندى مسلم صادق الاعتقاد فى كل مناحى تفكيره فهو على خلاف ما يتهمه به خصومه ، مؤمن بالله ورسله وكتبه وهو لا يسلم بكل آراء أرسطو كما فعل غيره من فلاسفة المسلمين ، وله كلام كثير جميل فى الدفاع عن النبوة والوحى وينسب إليه ابن النديم فى الرد على الملاحدة رسائل كثيرة .

وبلغ الكندى ذروة مجده أيام الخليفة المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) ولكن نجمه أفل أيام المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١م) الذى أبطل بدعة الاعتزال فأصابت الكندى محنة ونهبت داره وأعطيت كتبه لآل شاكر المنجمين فظلت فى حوزتهم حتى نالتهم المحنة بدورهم فنهبت دورهم وضاع ما فيها من الكتب بما فى ذلك كتب الكندى ، وقد مات الكندى بعد موت المتوكل بخمس سنوات سنة (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) بعد أن سجل اسمه فى سجل الفكر العربى بصفته أول فلاسفة المسلمين ورائدهم فى ذلك الميدان .

وإذا كان أول فلاسفة العرب عربيًا صريحًا فكذلك كان آخر كبارهم وهو ابن رشد ، وكلاهما كان آية فى الذكاء والاطلاع والإقبال على العمل ، وهذه الحقيقة تنهض دليلاً ينقض ما ذهب إليه ابن خلدون من أن أعلام العلم فى الإسلام كانوا من غير العرب فى غالبيتهم .

وإذا كان الكندى رجلاً واسع المعرفة يضرب فى كل علم ، فإن أول فيلسوف حق فى تاريخ الفكر الإسلامى هو أبو نصر الفارابى (٢٥٩ ـ ٣٣٩ هـ / ٨٧٣ ـ ٩٥٠م) وهو تركى الأصل والمولد عربى الفكر واللغة والثقافة ، واسمه أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ولد فى فاراب فى جمهورية قازاق السوفيتية اليوم فى شمال شرق نهر جيحون فى قلب آسيا ، ونشأ بطبعه زاهدًا متصوفًا عاشقًا للعلم والفكر محبًا للعزلة وقد دفعه حبه للعلم إلى الذهاب إلى العراق فدخل بغداد وقرأ الكثير من كتب الأوائل على يد أبى بشر متى بن يونس وكان من أقطاب المترجمين فى دار الحكمة ، وعلى يده درس كتاب المنطق لارستطاليس ثم مضى إلى هران فى شمال العراق وكانت داخلة فى إدارة سيف الدولة الحمدانى واتصل به الفارابى ودخل فى خدمته زمنًا قصيرًا ثم عاد إلى بغداد ليواصل دراسة فلسفة أرسطو ثم زار مصر سنة (٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م) وعاد إلى حلب وعاش فى بلاد الحمدانيين حتى توفى سنة (٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) فى دمشق عن ثمانين عامًا .

وكان الفارابى من أهل الإخلاص للعلم والزهـد فى الدنيا وخيرها فقد كان يستطيع أن يشغل أرفع المنـاصب ولكنه زهـد فى ذلك كلـه وعرض عليـه سيف الـدولة الأمـوال فاكتفى منهـا بأربعة دراهم فى اليوم يقيم بها أوده ، وكان مع زهـده بهى الطلعة حسن الصورة ميالاً إلى العزلـة والخلوة بين أحضان الطبيعة ، قال ابن خلكـان : إنه كان مدة مقامه فى دمشق لا يـرى غالبًا إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يـؤلف كتبه هناك ، وقيل : إنه كان يسهـر الليل فى مطالعة الكتب على مصابيح الحراس فما كان لـديه مال لمصابيح توقد طول الليل .

وكان الـرجل واسع العلم بالتركية والفارسيـة إلى جانب العربيـة ومع ذلك فإنه لم يدرس اليونانية أو اللاتينية وهذا أمـر يدعو إلى العجب فما دام مفتوناً بكتابات أرسطو وغيره من فلاسفـة اليونان فلماذا لم ينفق بعض وقته فى دراسـة اليونانية والـلاتينية ليقرأ الكتب فى أصـولها بدل الاعتماد على المترجمين ؟ يقول جميل صليب فى كـلامه عن الفارابى : وترجع مكـانة الفارابى إلى أنه أنشأ مـذهبًا فلسفيًا كامـلاً ، وقام فى الفلسفة العربية بالدور الذى قام به أفلوطين فى الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وكما لقب أرسطو بالمعلم الأول فكذلك لقب الفـارابى بالمعلـم الثانى . وقد خلف الفـارابى كتبًا كثيرة جدًا معظمها اقتباسات من أرسطو . أما آراؤه الفلسفيـة ففيها شكوك كثيرة لا يرضى عنها أهل الإيمان ولكنها أعجبت أهل الغرب فترجموا الكثير من كتبه إلى الـلاتينية ، وهذه يد كريمـة نحمدها لـه ، إنه واحد من أولئك الـذين وضعوا الفكر العـربى فى صميم الفكر الإنسـانى ، والفـارابى فى تاريـخ الفكر الإنسـانى شىء عظيم واسمـه عنـدهم لاتينى الصورة الفارابيوس .

ولكننا نحن معاشر العرب والمسلمين نقرأ الفارابى ونشعـر أنه بعيد عنا جدًا ، فهو عقل عظيم فعلاً ولكن قلبه خال مما نسميه نحن ببشاشة الإسلام وعنـدما أقرأ كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلـة » أحس أن هذا الرجل لم يقرأ القرآن قراءة تـدبر مرة واحدة ولكنه قـرأ كتب أفلاطـون مرات ، وهو لا يعـرف أمة الإسـلام التى تقوم أسـاسًا على القلوب ، وإذا كان الغزالى قد قـال : القلب خارج عن ولاية الفقيه ، فإننى أسمح لنفسى بأن أقول : الإسلام خارج عن ولاية الفـارابى وإن عقله لم يكن مسلمًا لا ولا كان قلبه ، ونظريته فى النبوة ليست إسلامية ولا وجود للقرآن أو السُّنة فى فكره .

* * *

وندخل إلى عالم ابن سينا فنجد أنفسنا أمام رجل آخر كل ما فيه يحببه إليك ، فهو صورة إنسانية جميلة ظاهرًا وباطنًا وهو فى داخل نفسه مسلم صادق يعرف القرآن معرفة جيدة حتى إن له فى تفسيره مشاركة ، وهو فيلسوف بمعنى الكلمة يفكر تفكير الفلاسفة ويعيش حياة فيلسوف أبيقورى ، وهو يحب الحياة ويقبل عليها ويعيشها بكيانه كله وهو يؤدى صلواته ولكنه يجد متعة فى شىء من الخمر وهو لا يخفى ذلك ولا ينافق ولا يتظاهر ولا يخدع نفسه أو الناس .

وابن سينا أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على قضى عمره كله يتنقل فى نواحى إيران فلم يدخل بلاد العرب قط ولم يحج إلى بيت الله على قدر علمى إلا أنه أجمل مثال للفارسى المتعرب روحًا ومنطقًا ، ولد فى قرية أخشنة قرب بخارى سنة (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م) وتوفى فى همذان سنة (٤٢٨ هـ) بعد حياة قصيرة لم تزد على ٥٧ سنة ولكنها كانت حياة رحبة عميقة شاملة فقد نال الوزارة وتمتع بالسلطان والجاه ، ولكن هواه الحقيقى كان العلم ، وقد أعطانا السمرقندى فى كتاب « جهار مقالة » أى المقالات الأربع صورة بديعة لفيلسوف عالم وزير يبدأ نهاره قبل الفجر فيكتب ما تيسر له حتى يرفع أذان الفجر فيصليه مع تلاميذه ويجلس إليهم بعد ذلك يعلمهم ثم يخرج إلى دار الوزارة فى موكب يحيط به ألف فارس ويعود إلى بيته بعد ذلك فيتناول غداءه ثم يستريح بعض الوقت ويصحو فيصلى العصر ثم يمضى إلى أميره فيجالسه وينادمه حتى صلاة المغرب ويعود إلى بيته ليجتمع بتلاميذه حتى إذا فرغوا من القراءة حضر المغنون وتهيأ مجلس الشراب بآلاته .

وقد وهب الله هذا الإنسان الرفيع عقلاً من نور ونفسًا من صفاء ، فأحاط بكل علوم عصره وألف شيئًا عظيمًا جدًا فى كل فن ، وهو فيلسوف عظيم وطبيب أعظم وقد طبَّقت شهرته الآفاق فى الطب ، وكتابه المعروف باسم القانون فى الطب طبع فى روما سنة ١٥٩٣ ، وكان قد ترجم إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر وطبعت هذه الترجمة فى أوروبا أكثر من عشرين مرة وظل الكتاب يدرس فى جامعات الغرب إلى القرن الثامن عشر وقد أحصى الأب جورج شحاته قنواتى من مؤلفاته ٢٧٦ رسالة وكتابًا تشمل كل فرع من فروع المعرفة ، وكتبه الرئيسية الثلاثة : الشفاء ، ومختصره المسمى بالنجاة ، والإشارات والتنبيهات موسوعات رفيعة المستوى . أما كتبه الإسلامية فمنها رسالة

التوحيد وإثبات النبوة ورسالة القضاء والقدر وقصيدة الجمانة الإلهية فى التوحيد ، وكتاب الشفاء يتناول قضايا الفلسفة الكبرى : المنطق والرياضيات والطبيعيات وإذا كان قد سار على نمط أرسطو فى مبادئه وابتعد عنه فى غاياته ومقاصده فمرد ذلك إلى نزعته الأفلاطونية ورغبته فى بناء فلسفة جديدة تجمع بين مبادىء الفلسفة اليونانية وأصول العقيدة الإسلامية (جميل صليب : تاريخ الفلسفة العربية ص ٢١٤) .

وقد ساهم ابن سينا ــ أو افيسينا كما عرفه أهل الغرب ــ فى بناء الفكر العالمى بأوفر نصيب وهو من مفاخر الفكر الإسلامى وما زال مشهد موته يؤثر فى نفوسنا إلى اليوم ، فقد كان الرجل شيخ الأطباء وشيخ المرضى فى آن معًا لأن حب الحياة وإقباله عليها أصابه بداء القولنج وهو الالتهاب المزمن المتقرح للمصران الغليظ وقد عجز عن مداواته ، فلما أيقن باقتراب المنية اغتسل وتاب إلى الله وتصدق بماله على الفقراء وأعتق مماليكه ثم أصابه نزيف حاد سقطت معه قوته وأسلم روحه لبارئها .

وننتقل إلى أقصى غرب مملكة الإسلام فنلقى حشدًا من أهل الفلسفة نقف منهم عند اثنين : ابن طفيل وابن رشد وهما أندلسيان .

فأما ابن طفيل فهو أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسى (٤٩٤ ـ ٥٨١ هـ / ١١٠٠ ـ ١١٨٥ م) وأصله من وادى آش وهى مدينة جميلة فى مداخل جبال البشارات شمالى غرناطة ويسمونها هناك جواد يتس ، ودرس الطب والفلسفة وله فى الطب أرجوزة لم تطبع بعد ، أما شهرته فترجع إلى قصته الفلسفية المسماة بـ « حى بن يقظان » وهى حكاية طفل ولدته أميرة وأرادت التخلص منه فألقت به فى جزيرة مهجورة من جزائر الهند وهناك تبنته غزالة فأرضعته حتى نما وأدرك وأخذ يفكر فى أمر نفسه ثم التقى برجل فيلسوف زاهد يسمى آسال ، علمه الكلام والتفكير وما زال حى بن يقظان يتدرج فى التفكير مرحلة بعد مرحلة فى رعاية صاحبه آسال حتى وصل إلى العلم بالله ثم مضى مع آسال إلى عالم الناس فراعه ما وجد من شقاء الناس لغلبة الشهوات الجسدية عليهم فتركهم على حالهم وعاد إلى جزيرته مع صاحبه فعاشا ينعمان بلذة العقل والإيمان والتحرر من الشهوات حتى أدركهما الموت .

قصة جميلة نابعة من قلب مسلم مؤمن يجد المتعة الكبرى فى الوصول إلى الله عن طريق الفكر والاستنباط ولهذا فهى تسمى أسرار الفلسفة الإشراقية ، أى إشراق النفس

بنور الله ، وقد ترجمت إلى لغات العالم أجمع ، وقد قال فيها غرسيه خومس : إنها من أعاظم المؤلفات التى أهداها الفكر العربى إلى الفكر العالمى ، أما أورتيجا أى جاست فيلسوف إسبانيا الأوحد فقال إنه بعد أن قرأ قصة حى بن يقظان فى ترجمتها الإسبانية ارتفع الفكر الإسلامى فى نظره درجات .

وننتقل إلى أبى الوليد محمد بن رشد الأشبيلى (٥٢٦-٥٩٥ هـ/١١٢٦-١١٩٨م) الذى عاش فى ظل الموحدين مثله فى ذلك مثل أستاذه ابن طفيل ، ونحن مع ابن رشد نعيش مع فقيه مسلم متفلسف ألف فى الفقه الإسلامى كتابًا فريدًا هو « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ودافع عن الإسلام والعقيدة السمحة فى كتابه البديع « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والبدع المضلة » ، وأشهر كتبه عندنا « فصل المقال وتقدير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » وهو أحسن ما ألف المسلمون فى التوفيق بين مذاهب الفلاسفة ومذاهب أهل الاعتقاد .

أما فى الفكر العالمى فابن رشد يسمى أفرويش وهو اسم عرف به عند أهل بلده من الأندلس فى حياته وسموه أفرويش وهو أعظم من درس فلسفة أرسطو ، وعكف على شرحها فى العصور الوسطى ، وهو شيخ أهل الغرب فيها ولم يقتصر جهده فى ميدان الفلسفة على شرح أرسطو ، بل هو فيلسوف أصيل وقد ترجمت كل مؤلفاته وشروحه الفلسفية إلى اللاتينية وعكف عليها أهل العلم والفكر يدرسونها هناك وكانت من أصول الدراسة فى جامعات باريس وكيمبردج وسالرنو ، فهو أستاذ من أساتذة الدنيا وشيخ من شيوخ الدنيا ، وفيه ألف إيرنست رينان كتاب « ابن رشد والرشدية » .

وقد شقى ابن رشد بالفلسفة فقد عاش فى عصر الموحدين (٥٢٦ ــ ٥٩٥ هـ / ١٢٢٦ ـ ١١٩٨ م) ورضى عنه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على ثانى خلفاء الموحدين وغضب عليه خليفته أبو يوسف يعقوب المنصور وتقرب بإيذائه إلى الفقهاء والجماهير فأمر به أن يوقف فى مجلس فسيح وأمر الناس أن يمروا به ويبصقوا فى وجهه وهذا كان عندنا جزاء شيخ مؤمن غامر بنفسه حبًا فى العلم وأوسع للفكر الإسلامى مكانًا رحبًا فى تاريخ الفكر الإنسانى .

وحياة ابن رشد على هذه الصورة توجز مصائر أهل الفكر الحر فى عالمنا العربى غير السعيد ، وهو مصداق لما بدأت به هذه الفصول من أن القاعدة الجارية عندنا هى أنا أفكر فأنا غير موجود !!!

الصُوفِيَّةُ : وَصْفَةٌ شَعْبِيَّةٌ لِعِلاَجِ أُمَّةِ الإِسْلاَمِ مِنْ حَالَةِ اكْتِئَابٍ نَفْسِيٍّ جَمَاعِيٍّ

التصوف داخل عالم الإسلام وخارجه ظاهرة نفسية وجدانية ، ومن ثم فما كان ينبغى أن يكون له مكان فى بحثنا هذا عن تاريخ الفكر العربى ، ونحن مهما نقرأ من كتابات أعلام الصوفية فى الإسلام من الحارث بن أسد المحاسبى إلى أبى حامد الغزالى ومحيى الدين بن عربى ، فإننا لن نجد فيها فكرًا بل عاطفة ووجدانًا ، وحتى إذا وجدنا فيها فكرًا فإنه فكر خاص لا يفهمه أو يستسيغه إلا الذين أوتوا بطبعهم ميلاً وجدانيًا وتذوقًا روحيًا يمكنهم من الاستمتاع بكتابات الصوفية ، وإدراك مغازيها ومضامينها وهذا يفسر لنا كيف أن أكبر من أحب الفكر الصوفى الإسلامى ودرسه وكتب عنه هو رجل إنجليزى من أهل اليسار رينولد ألن نيكلسون Renolad Allen Nickalson وكان أستاذًا للغات الشرقية وحضارة الإسلام فى جامعة كيمبريدج ، وقد وهب معظم جهده لدراسة التصوف الإسلامى ، ومقدمته لكتاب « اللُمَع » لأبى نصر السراج تدل على تذوق حقيقى لكلام صوفية المسلمين .

وقد نشر وترجم إلى الإنجليزية من كتب الصوفية المسلمين ما بين عربية وفارسية ما لم يدانه فيه أحد من المتخصصين فى التصوف والفلسفة عندنا ، هذا والرجل إنجليزى مسيحى ولا يعلل شغفه بالتصوف الإسلامى إلا بأنه هو نفسه كان صاحب مزاج تصوفى ، وهذا المزاج هو الذى أعانه على تذوق كتابات السراج والعطاء وابن الفارض ومحمد إقبال وكانت فى إقبال ـ فيلسوف الشعر الإسلامى المعاصر ـ نزعة صوفية ظاهرة ولكنى عندما رددت النظر فى ظاهرة التصوف فى عالم الإسلام تبينت أنها فى مجموعها صورة من صور ردود الفعل التى نجمت عن الظروف السياسية والاجتماعية السيئة التى عاشت فيها شعوب أمة الإسلام من منتصف العصر الراشدى ، وهى ظروف جعلت تسوء عامًا بعد عام فإذا كان المسلمون أنصاف تعساء فى العصر الأموى فقد أصبحوا تعساء فى العصر العباسى الأول ، وتعساء بؤساء فى

العصر العباسى الثانى ، ثم تعساء بؤساء فقراء إلى بداية العصر العثمانى ، ثم تعساء بؤساء فقراء أشقياء بلا أمل فى النجاة إلى مطالع العصر الحديث .

وهذه الظروف السياسية والاجتماعية الأليمة التى عاشتها أمم الإسلام هى التى جعلتها كلها تدخل في حالة نفسية عامة يمكن أن نسميها بالاكتئاب الجماعى Eallac-tine de Jessian فلم يسلم من هذا الاكتئاب خليفة أو أمير أو خفير أو فقير ، فأما أهل القوة والغنى واليسار فقد التمسوا الخروج أو الهروب من حالة الاكتئاب هذه بإغراق أنفسهم فى بحار الخمر والقيان والنسوان ، وقد روينا فيما روينا حالة الخليفة المتوكل الذى أراد التخلص من القادة الأتراك الذين فرضوا سلطانهم عليه فدبر مؤامرة للفتك بهم ، وفي انتظار ساعة الصفر جلس مع ندمائه يشرب ويأكل حتى شرب أربعة عشر رطلاً أى كوبًا من الخمر ، وفى سكرة الخمر قتله ابنه وتولى مكانه ، وإليك هنا حالة الخليفة القاهر العباسى (شوال ٣٢٠ ــ جمادى الأولى ٣٢٢ هـ / أكتوبر ٩٣٢ ـ مايو ٩٣٤ م) ، الذى خلع وخلفه المستكفى فأراد القاهر أن يغيظ خلفه فخرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس وقصد بذلك التشنيع على المستكفى ، فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم ، ولما علم المستكفى بذلك منعه من الخروج وظل محبوسًا إلى أن مات وذلك فى عهد الخليفة الطائع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) (الفخرى لابن طباطبا ص ٢٤٩) فإن لم تكن هذه أحوال ناس مرضى نفسانيين فقل لى كيف يكون مرض النفس ؟

وإذا كان هذا هو حال الخلفاء فتصور أنت كيف كانت حال غير الخلفاء من عامة الناس ! حالة الاكتئاب الجماعى هذه هى التى أتاحت الفرصة للطامحين إلى السلطان وأذكياء المغامرين ليزعموا للجماهير المريضة البائسة أن الخلاص من مشاكلها لن يكون إلا على يد المهدي المنتظر ، وهو رجل من عترة المصطفى ﷺ يختاره الله سبحانه ويخرجه إلى الدنيا وقتما يشاء ليملأ الدنيا عدلاً ، وهو الآن مستتر وهم وحدهم يعلمون أين يكون لأنهم دعاته ، وهم درجات وطبقات ، ولكى يكون الإنسان من السعداء الذين تشملهم نعمة المهدى لا بد أن يؤدى الزكاة إلى الدعاة ، والداعى يأخذ الزكاة ويدس فى جيبه ما يشاء ويعطى الباقى للذى فوقه ، فالذى فوقه وهكذا حتى لا يصل إلا عُشر المجموع إلى المهدى المنتظر المستتر بقرية تسمى سلمية من بلاد الشام .

فتصور أن مجموع ما كان يصل إلى المهدى المستتر هذا بعد كل تلك السرقات أصبح مع الزمن أكداسًا تملأ سراديب حفرها تحت الأرض يبلغ طول بعضها كيلو مترات وعمقها فوق العشرين مترا ، وشيئًا فشيئاً اتسعت شبكة الدعاة هؤلاء حتى شملت كل بلاد الدولة الإسلامية ؛ لأن عملية الدعوة أصبحت أكبر بزينس Businss خلال القرن الهجرى الثالث ، وفى نهايته سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) ظهر المهدى المنتظر فى القيروان فى تونس بعد تمهيد طويل ، وسمى نفسه عبيد الله المهدى فإذا به لا هو بمهدى ولا هو بمنتظر ، وربما لم يكن من نسل الرسول قط ، وأول ما فعله هو أن قتل داعى دعاته أبا عبد الله الشيعى وأخاه أبا العباس المحظوم وبموتهما ماتت أسرار الدعوة ومخازن أموالها وتلك هى الدولة الفاطمية التى أغرقت بلاد المغرب فى الدماء قبل أن تنتقل إلى مصر سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) أيام خليفتها الرابع وهو المعز لدين الله ، والمعز انتقل إلى مصر بخلافته وأهله وجنده حتى عظام أجداده ، فقد أبى له كرمه إلا أن يقدمها هدية لأهل مصر الذين حلت بهم السعادة بحلوله فى أرضها ، ولكن أهم شىء حمله المعز إلى مصر هى أمواله وهذه لم يهدها إلى أهل مصر ؛ لأنها كانت قطارًا طويلاً من الجمال وكل جمل يحمل حجرى طاحون من الذهب الخالص وزنهما قنطار ، وهذه هى الطريقة العجيبة التى حمل بها هذا المعز قناطير الذهب التى تجمعت من أموال الزكاة والذى جمعه المعز وسلالته من أموال المصريين لم يسمع بمثله حتى أفلست مصر إفلاسًا وعرفت المجاعة الكبرى أيام المستنصر وتلك هى نعمة المهدى المنتظر الذى قال فيه شاعر عظيم هو ابن هانىء :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار

وهو بيت من الشعر يدخل به ابن هانىء هذا جهنم من كل باب .

أما أهل السُّنة الذين اعتصموا بالقرآن والسُّنة فلم يجدوا لأنفسهم علاجًا هو أنجع من التجمع والجمود والعودة إلى الماضي على ما وصفناه .

***

وبقيت هنا وهناك نماذج قليلة من البشر لم يعجبها الحل الشيعى ولا أقنعها الحل السُّنى ، وهذه اتجهت بنفوسها إلى الله مباشرة فهو سبحانه الشافى المعافى ، والطريق

الذى سلكوه إلى الله هو طريق الزهد والتخلى عن الدنيا والاعتصام بالفقر ؛ لأن الفقير المفلس لا يطمع فيه أحد فلا هو يخشى أن يعتدى عليه لص أو يقتله سلطان ، وهكذا أصبح المفاليس سعداء الدنيا وأكثرهم أمناً وأماناً ، وقد حكى التنوخى فى « نشوار المحاضرة » (مائدة الحديث) حكاية رجل ضاقت به الدنيا فركب حماره ووقف على باب أحد الأغنياء وقال له : أبيعك نفسى فأكون عبدًا رقيقًا لك وتطعمنى . فنظر الرجل إليه وقال : لا ، ولكن آخذ الحمار فهو أنفع . فقال الرجل : وتأخذنى معه أخدمه .

فى أمان الفقر ووراء درع الزهد مضى أولئك الناس يلتمسون الطريق إلى الله ، ولا بد أن نسلم أن هناك ناسًا يفطرهم الله على الشوق إلى المجهول والاتجاه إلى البحث عن راحة النفس فى الزهد وتعذيب النفس ، فكما يوجد فى الهند والصين ناس يجدون السعادة فى الخلوة والزهد وتعذيب النفس ، فقد عرفت المسيحية رجالاً مثل سمعان العمودى الذى قضى معظم عمره قاعدًا على رأس عمود رخامى يصلى لله ويتعبد من فوقه وكأنه لم يكفه هذا فصار يطلى نفسه بالعسل حتى تزحف عليه جيوش النمل والهوام ، وعندنا فى الإسلام وفى نفس القرن الثالث الذى ذكرناه رجل يسمى أبا سعيد ابن أبى الخير علق نفسه من رجله بحبل وتدلى فى بئر عامر بالهوام ووجد فى ذلك طريقًا للسعادة والخلاص .وهذا الطراز الفريد من الناس عرفوا عندنا بالصوفية قضوا أعمارهم باحثين عن الطريق إلى الله ، وبعضهم وصل إلى الاتصال بالله فى زعمه دفعة واحدة كأنما دعاهم الله سبحانه إلى نفسه ؛ وهؤلاء هم أصحاب الحالات أو الأحوال ، وهم درجات لأنهم انتقلوا من حالة الجهل والحيرة إلى حالة العلم والرضا الإلهى ، والله سبحانه ألقى فى قلوبهم العلم كله إلقاء نعمة منه وفضلاً ، ومثالهم المشهور لدينا هى رابعة العدوية البصرية وهى أم الخير رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك التى كانت حية ترزق سنة (١٨٥ هـ / ٨٠١ م) ، وكانت تهيم فى وديان الضلال حتى هبطت عليها رحمة الله فزهدت فى الدنيا واعتزلت الناس ، ثم أصبحت من أصحاب الأحوال ورزقها الله العلم كله وأجرى على لسانها الشعر الجميل فى العشق الإلهى ، وروى الناس عنها شعرًا جميلاً لانعرف إن كانت قد قالته حقًا أم هو نسب إليها مثل قولها تخاطب الله سبحانه وتعالى :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحبك ، لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواك

وأمـــا الـــذى أنـت أهل لـــه فكشفك للحجب حتى أراكـــا

فـــلا الحمـــد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لـك الحمـــد فى ذا وذاكـــا

والوصول إلى هذه « الحالة » مفـاجأة تعتبر عندهم نعمة الله الكبرى ، فيدخلون فى حالـة « الوجـد » التى تجعلهم لا يجدون لـذة إلا فى الزهد والبعـد عن النـاس والنشوة بالوجد أى الحب الإلهى ، ومن الأمثلة الدرامية لذلك حكاية رجل يسمى جعفر بن حرب المتـوفى سنة (٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م)و كـان فى نعمـة كبيرة ، فإذا هـو ذات يوم يجتـاز الشارع فى مـوكبه إذ سمـع قارئًا يقـرأ قول الله سبحـانه ﴿ أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَـا نَزَلَ مِنَ الْـحَقِّ ﴾ . فصاح : بلى والله قـد آن ! ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتـى مات ، وفى نفس السنة توفى عالم زاهد كان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كانت ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل كل تلك اللقم التى استفضلها (شوقى ضيف ، تاريخ الأدب العربى ٥ / ٢٦٩) ، ومثل ذلك كثير جدًا فى كتب الصوفية وطبقاتهم .

وهناك نفـر آخر من أهل الزهـد والتصوف ، أى لبس الصوف لا تنـزل بهم نعمة الوجد نزولاً مفاجئًا دون تعب ، ولا بد أن يشقوا طريقهم إليها ، وينتقلوا وهم فى الطريق وحياة الزهد من درجة إلى درجة حتى يصل إلى الوجد أو الإشراق أى إشراق النفس بنور الله ، وهو عنـدهم الوصـول إلى الله وصاحبه يسمى الـواصل ، وتلك الدرجـات عندهم تسمى المقامات ولهذا فهم أصحـاب المقامات وأولها عندهم مقام الورع ثم مقـام الزهد ثم الفقر ثم الصبر ثم المراقبـة ثم الرضا ثم القرب ، ومن القـرب ينتقل السعيد منهم إلى حال المحبة أى محبة الله ، وكل هذه مصطلحات أخذوها من ألفاظ القرآن الكريم وبينهم خلاف فى ترتيبها .

وأول من نعـرفه من أصحـاب المقامـات هـؤلاء هو ذو النـون المصرى ، وهو أبـو الفيض ثوبان بن إبراهيم المتـوفى سنة (٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) ، وهو من أهل أخميم من صعيد مصر ، وهو أول من نسمع أن اسمه ذو النون من المسلمين ، والأغلب أن جدًا من أجـداده الأقباط هـو الذى أسلم وكـان اسمه زنـون Zenon وهـو اسم علم إغـريقى معروف ، فـإذا صدق هذا الحدس فيكـون ذو النون المصرى سليـلاً متأخرًا مـن قوم أنطونيـوس المصرى الذى تقـرر كتب التاريخ أنـه ابتكر الـرهبنة وأدخلهـا المسيحية ،

والرهبنة كانت عندهم الانخلاع عن الدنيا والخروج إلى البرية لمحاربة الشيطان عدو الله ومسكنه البريـة أى الصحراء ، وأنطونيوس انتصر على الخوف من الشيطـان وخرج إلى الصحـراء ليغزوه فى عقـر داره ، والقصـة كلها مـرويـة فى كتاب لاتينى يسمى حيـاة أنطونيوس Vite Antamii ، وأنطونيوس المصرى هذا لقى فى إحدى جولاته فى الصحراء الأنبا بولا السواح أى الجوال فى الأرض فى مواجهة عدو الله إبليس .

وعلى هذا فـلا يكون ذو النـون المصرى قد طفـر من فراغ بل هـو مواصـل لتقليد مصرى قديم له قواعده وتقاليده ، لأن رجلاً آخـر من أقباط مصر هو الأنبا باخوميوس ابتكر فكرة الأديرة ، أى الانقطاع فى الصحراء لمحـاربة الشيطان جماعة فنشأت الأديرة التى أصبحت تقليدًا مسيحيًـا عظيمًا ، وباخـوميوس وضع للديـارين أو سكان الـدير نظاماً فى الحياة والعبادة ، وذو النون المصرى يبدو لنا كأنه صدى بعيد لذلك كله .

وإذا كان الزهد والتصوف ـ تاريخيًا ـ رد فعل لحالة اليأس والكآبة التى كانت أمة الإسلام تعيشهـا خلال العصر العباسى خـاصة ، فإن ذا النـون كان أول من تكلم عن المعرفة الصوفية التى تأتى إلى الإنسان من الله قذفًا فى القلب دون دراسة أو عناء ، فهى معرفة تتأتى لصاحبها نتيجة للخلوة الطويلة والـزهد فى الدنيا والرياضات الصوفية ، فهى إذن معـرفة يلقيهـا الله فى قلب المؤمن ، فـالله سبحـانه يكشـف عن قلبه الحجـاب ويطلعه على العلوم كلها فهى معرفة باطنـة ولها أحوال ومقامات ، وقد سئل ذو النون : كيف عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ، ولـولا ربى ما عرفت ربى ، وكان ذو النون يرى أن الوصول إلى الوجد والمعرفة الإلهية فضل يؤتيه الله لمن يشاء بعد أن يتأهل لذلك بالصبر والعبـادة وانكسار النفس ، وهى لهذا امتيـاز مقصور على الذين يستحقـونه ، ومن ثم فلا يجوز أن تتكشف أسرار الصوفية لكل الزهاد .

ويجىء أبو يـزيد البسطامى (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) وهـو أبو يزيـد طيفور بن عيسى بن آدم ، وهـو فارسى من أهل بسطـام فى خراسـان ، فيمضى بالفكـر الصوفى خطوة أخرى فى طـريق الرياضات الـدينية فيقول : إن الإنسان إذا استمـر فى المجاهدة وكان صـادقًا فى زهـده وحبه لله فنيت ذاتـه فى ذات الله وأصبح هو والله شيئًـا واحدًا ، وانتشر مذهبه هـذا بين متصوفة الفرس حتى أصبح بطـلاً قوميًا ونسبوا إليـه معراجاً روحيـاً إلى السماء فـاقترب من العـرش واستضـاء بأنـواره وذاع صيتـه بين الأتـراك

العثمانيين فى العصر الأول من عصور تاريخهم ، وهو عصر الغزاة ، فتبرك باسمه رابع سلاطينهم وهـو بايزيد وهو فى التركيـة بايازيت ، وأخذ نفس الاسم سلطـانهم الثامن وهو بايازيت الثانى ، وعلى يديه أصبح للصوفية لغتهم الخاصة التى ينفردون بها مثل قولـه : للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنـه محيت رسومه وفنيت هويتـه بهوية غيره ، وغيبت آثاره بآثار غيره و « غيره » هذا هو الله سبحـانه ، وفى مثل هذا الكلام نرى كيف أن التصوف شفـى نفسه من حـالة الكـآبة بنسيـان نفسه وفقـدان شخصيته واتخاذ شخصية أخـرى تعيش فى عالم آخر بعيـد عن عالم الناس وهـو عالم الوجـد الصوفى ، ومصداق ذلك قوله : منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتى ، فصرت اليوم مرآة نفسى لأننى لست الآن من كنت ، ومثل هـذا الكلام كـان يصدر عن أبى يـزيد فى حـالة من حـالات غيبوبته عن الدنيا والواقع .

وفى نفس طريق المجاهدة الصوفية سار الجنيد (ت ٢٩٧ هـ / ٩١٢ م) وهو أبو القاسم الجنيد بن محمد ، وهو فارسى سُنى من أهل نهاوند ، وكان يرى أن الصوفى لا ينبغى أن ينقطع عن الدرس والعلم انتظارًا للعلم اللدنى ، الذى يأتى من لدنه أى من عند الله قذفًا فى القلب ، وليس هذا بغريب ؛ لأن الجنيد كان فقيهًا واسع العلم وقد ذهب إلى أن الصوفى يصل إلى الفناء فى ذات الله عن طريق الرياضات والمجاهدات والزهد فى الدنيا مع الإقبال على العلم .

وفى حلقة الجنيد ظهر الحلاج ، وهو أبو مغيث الحسين بن منصور (٢٤٤ ـ ٣١١ هـ / ٨٥٨ ـ ٩٢٢ م) ، وهـو فارسى من أهل البيضـاء قرب اصطخى وقـد ذهب مع مذهب الاتحاد بـالله عن طريق المجاهـدات والخلوات والسياحـة فى الأرض إلى درجة لم يسبقه إليهـا غيره فقد كان فيما يبدو يعـانى من اضطراب شديـد نفسى جعله يهيم فى وديان بعيدة من التخيـل المريض ، وصار يقول عبارات مثل : أنـا الحق أى أنا الله ، وقد قضى عمره يتجول فى الأرض وحج مرتين ، وأمثال هؤلاء الناس من أهل التخريف الذى نسميه بالشطح يفتنون الجماهير بما يقولون من عبارات تجمع بين الجنون والحكمة ، وهو الصورة الخالدة فى تاريخ الفكر العربى للمجذوب الشعبى الذى يستولى على ألباب العوام فينسبون إليـه الكرامات والخوارق ، وقد تبرأ منه شيخـه الجنيد ، وقد وصل فى بعض سياحـاته إلى الهند وأخذ عن مجاذيبهـا أعمالاً عجيبة تشبه السحر فـافتتنت به

الجماهير فأسرف فى شطحاته ليستزيد من إعجاب الجماهير وقد بلغ به ذلك مبلغاً جعله يقول أشياء تخرجه عن الإسلام جملة ، وهذا هو الذى أخاف الدولة وأهل السُّنة منه خاصة وقد كانت له قدرة على صياغة أشعار غريبة تطير فى الناس طيرانًا مثل قوله يخاطب الله سبحانه :

مزجت روحك فى روحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال

فإذا مسك شىء مسنى فإذا أنت أنا فى كل حال

ولا ندرى إن كان الحلاج قد وصل به الهياج النفسى إلى الدرجة التى أخرجته عن الإسلام فجعل يقول : إن روح الله سبحانه حلت فيه ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن الرجل وصل به الوجد إلى درجة جعلته أشبه بصورة السيد المسيح فى أخريات أيامه ، وهنا أفتى الفقهاء بكفره وقبض عليه رجال الدولة وحاكموه وحكموا بموته ونفذوا الحكم فيه على ملأ من الناس .

وفى موقف الموت كان الحلاج لا يخشى الصلب حيًا ، فنظر إلى خشبة الصلب والمسامير التى ستدق فى جسده وقال : هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى توصيًا لدينك وتقربًا إليك فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت ، وهى عبارة جعلت المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون يرى أن أبا منصور الحلاج قد تسامى به الوجد حتى وصل به إلى لباب المسيحية بل المسيح نفسه ، فأمضى سنوات طويلة من عمره يجمع أخبار الحلاج وأشعاره وكتب كتابه المشهور « محنة الحلاج » Lapassiomdap Happay وهو كتاب جليل الظاهر خبيث الباطن .

ومن حسن الحظ أن غالبية أهل التصوف لم يصل بهم الهرب من الواقع الكئيب إلى هذا الحد ، فظلوا فى موقف وسط بين العلم والوجد الصوفى الذى هو فى الحقيقة هروب من الواقع ، وعلى هذا المذهب سار القشيرى أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن وهو عربى (٣٧٦ ــ ٤٦٥ هـ / ١٠٦٨ م) ورسالته المنسوبة إليه (القشيرية) مزاج مقبول من العلم والتصوف وهى تعود بنا إلى الخط المأمون : خط المحاسبى ومن سار فى طريقه حتى نصل فى النهاية إلى أبى حامد الغزالى وهو أجمل صورة وصل إليها التصوف الإسلامى ، فهو تصوف عاقل يقوم تصوفه على العلم الواسع والفقه الحسن

مع الزهد فى الدنيا والتماس الصفاء النفسى عن طـريق التعبد والرياضات ودرة أعماله وهو « إحياء علوم الدين » كتاب علم وتصوف فى آن واحد .

ولكن مفكرًا مسلمًا آخـر هو ابن عربى لم يستطع الـوقوف عند هـذا الحد المأمون الذى وقف عنـده الغزالى ، وهـو أبو بكر محمـد بن على بن عربى (٥٦٠ ــ ٦٣٦ هـ / ١١٦٤ ــ ١٢٤٠ م) وهو أنـدلسى من أهل مـرسية نشـأ فى بيت عربى قـديم ودرس القرآن والسُّنة والفقه على يد أعلام بلده ، ولكن مزاجه العصبى الشديد الحساسية مال به إلى طريق التصوف ، وجـدير بالذكر أن العصر الذى عـاش فيه ابن عربى كان عصر المحنة الأندلسية الكبرى التى وصلـت إلى ذروتها فى أواخر العصر الموحدى وهو العصر الـذى عاش فيـه ابن عـربى ، لقـد وصل ابن عـربى فى مجال العلوم الـدينيـة إلى أرفع الدرجات ولكن مـزاجه الخاص مال به إلى الزهد والتقشف والسيـاحة فى الأرض فخرج عن الـواقع تمامًـا ، وأصبح يعيش فى عـالم روحى وجـدانى منفصل عن الـدنيـا ، وفى سياحاته اكتسب علمًا كثيرًا ومر بأحوال صوفية متوالية ، فتصور أنه لقى الخضر وهو نبى خيالى خالد لا يموت لا نزال نراه فى أخبـار الفقهاء ، والصوفية يقولون : إنه عبد الله الذى لقيـه موسى عليه السلام ، وفى ليلـة من الليالى تصور محيى الدين بن عـربى أنه تزوج زواجًا صوفيًا بكل نجوم السماء ، وفى سياحاته مر بمصر وآسيا الصغرى وبلاد الروم ، وقد حج ابن عربى أكثر من مرة وخلف وراءه تراثًا من الأدب الصوفى جليـلاً ، وكتابه الأشـهر « الفتوحات المكيـة » كتاب فقه وتصوف فى نفس الوقت لأن ابن عربى لم يفقد أبـدًا الاتصال بالحقائق الإسـلامية الكبرى ولكن اللغة التى كـان يستعملها فى نثره وشعره جعلته يقول أحيانًا كلامًا يتصور معه قارئه أنه مسلم مسيحى ، وهذا هو الذى فتن فيه عالمًا إسبانيـا جليلاً من أهل الاستشراق وهو ميجيل آسين بلاتيوس Mi-guil Asin Papadis الذى ذكـرناه فى حديثنا عن الغـزالى فأطال دراسة حياتـه وكتبه وكتب فيه كتبًا أجلها « الإسلام فى ثوب نصرانى » .

وابن عربى يعتبر من المفكـرين العرب الذين دخلوا ميدان الفكـر العالمى ، فإن أهل الغرب أعجبوا به بفضل ما كتب عنه آسين بلاتيوس .

وفى ظروف الفوضى وانعـدام الأمان التى عمت بلاد الإسلام جميعًـا خلال القرن الخامس الهجـرى / الحادى عشر الميلادى ومـا بعـده ساد جماهير المسلمين شعـور

شامل بالخوف وانعدام الأمان على النفس والمال ، وانتشر الفقر نتيجة لجشع الحكام فى أموال الناس ، واشتدت على الناس وطأة الكآبة وخاصة عندما ترامت إليهم أخبار تغلب النصارى على معظم الأندلس الإسلامى وجرؤ الروم البيزنطيون على بلاد الإسلام فاجتاحوا شمال الشام والجزيرة العراقية ، واستبد الخوف بجماهير الناس فلم يعد الهروب من الحياة والانخلاع عن الدنيا كافياً لعلاج حالة الضياع التى كانت تتزايد مع السنين ، وهنا برز من صفوف الصوفية رجل فريد فى بابه هو أحمد الرفاعى (٥١٢ ـ ٥٧٨ هـ / ١٦١٨ ـ ١٦٨٢ م) وحياته تبدو لنا وكأنها رمز على اتجاه جديد فى تاريخ الحركة الصوفية فى بلاد الإسلام ، فقد ولد بقرية تسمى أم عبيدة من أعمال واسط فى العراق الأوسط ، وهو منسوب إلى جده السابع رفاعة وهو ينتسب إلى جماعة من أشراف الحجاز ، وقد هاجر جده رفاعة من الحجاز إلى المغرب ثم الأندلس وهناك شهد محنة الإسلام الأندلسى ثم عاد إلى مكة وفيها ولد أبو الحسن والد أحمد الرفاعى ومنها هاجر إلى البصرة ثم إلى أم عبيدة حيث والد أحمد بن أبى الحسن الرفاعى ، ونشأ أحمد فى كنف خاله شيخ الطريقة البطائحية فدخل الطريق وأخذ العهد ولبس الخرقة على يد خاله ، والعهد كان عقدًا شفويًا بين الشيخ والمريد يتعهد فيه المريد بأن يدخل فى طاعة الشيخ ويتبع طريقته فى العبادات والمجاهدات حتى إذا رأى الشيخ منه جدًا فى العبادة واستعدادًا للسير فى طريق الصوفية ألبسه الخرقة ، وهى ثوب من قماش غليظ لا يخلعها المريد بعد ذلك ويترقى فى مراتب الصوفية من درجة إلى درجة حتى يصل إلى مشيخة زاوية ، وقد يصل بعد ذلك فى مقامات الصوفية إلى الإمامة ثم القطبية ، وكانوا يقولون: إن عمار الدنيا يقوم على أقطاب يكرمهم الله بالولاية والقدرة على الإتيان بالكرامات أى خوارق الأعمال ويكونون أوتاد الأرض ، وللأقطاب أبدال أى رجال مرشحون لوراثة القطبية إذا مات أحد الأقطاب ، ونشأ أحمد الرفاعى فقيهًا عالمًا فلم يقنع بالانتظار حتى يلقى الله فى قلبه العلم كرماً منه وفضلاً فدرس وتفقه وصار يأمر أصحابه بتوقير العلم والعلماء ، ونهى الصوفية عن التبطل والعيش على إحسان الناس ولم يقبل بين مريديه إلا صاحب حرفة يعيش منها ومن لم يكن صاحب حرفة استحثه على تعلم حرفة يعيش منها ، وحفز مريديه على العمل فى خدمة الناس ، والتجمع فى الليل فى زواياهم حيث يقومون بأورادهم وأذكارهم جماعة فانتشرت زوايا الرفاعية وكثر

مريدوها وأصبحت كل زاوية مركـزاً لنشاط اجتماعى واسع فى خدمة الناس ، واشتهر عنه قـوله : طريقى دين بـلا بدعة ، وهمة بـلا كسل ، وعمل بلا رياء ، وقلب بـلا رياء ، ونفس بلا شـهوة ، وكان ينفق وقته فى خدمة الناس ويقول : « إن تجارتى خدمة النساء والأرامل واليتـامى ، وأحب أن أشـهـد نفسى فى خـدمتهم دائمًا ، وإذا رأيت يتيمًا يبكى تهتز مفاصـلى وترتعد أعضائى حنانًا له ، وشفقة عليه وأخاف من بكائه » .

* * *

الفكر العربي يدخل العصر الحجري

من أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ينتاب أهل العلم فى العالم الإسلامى فزع شامل مصدره إحساس عام بأن الدنيا فى انتظار قارعة تكون إنذارًا بقيام الساعة . فالأندلس ـ درع عالم الإسلام من ناحية الغرب ـ قد تهدم والطوفان وصل حدود مملكة غرناطة ، وهى فى طريقها إلى الزوال والمد الصليبى الإسبانى البرتغالى وصل إلى بلاد المغرب ودولة المرينيين هناك تصدعت ، وانتقلت مسئولية الدفاع عن الغرب الإسلامى إلى جماعات الصوفية المجاهدة التى أشرنا إليها فى الفصل السابق والزوايا المغربية أصبحت حصون الإسلام ، وجماعات الصوفية أصبحوا جنده والطريق يتمهد لقيام أولى دول الشرفاء فى المغرب الأقصى ، وهى دولة السعديين الأشراف الحسنيين وأولهم أبو عبد الله محمد المهدى بن القائم (٩٥٥ ـ ٩٦٤ هـ / ١٥٤٨ ـ ١٥٥٧ م) .

أما على أطراف العالم الإسلامى الشرقية فالصورة أشد قتامًا ، والسحب تتجمع والنذر تتوالى فهناك فى غربى إيران وخراسان وما وراء النهر وطخارستان وغرجستان وهى بلاد الأفغان الحالية كانت الأمور استقرت على وضع قلق ولكنه معقول ، فالبلاد تقاسمها أمراء إقطاعيون يتميزون بصلاح وحرص على الإسلام ، وكانوا جميعاً أتراكاً من جماعات الأوزبك الذين سينتسب إليهم مماليك مصر والشام ، وكانوا أهل سُنة فيهم حب للعلم والخير ، وحبهم للعلم حفزهم على الإكثار من إنشاء الرباطات للصوفية المجاهدين ، وكانوا مجاهدين حقًا ، ثم المدارس لتعليم آلهم وأولادهم العربية والقرآن والسُّنة وكانت تقع بينهم الحروب .

ولكنهم كانوا يتحدون معاً ساعة الخطر وإلى شمالهم ـ شمالى نهر جيحون ـ كانت تنزل قبائل الأتراك الخطا ، وكانوا مسلمين وبلادهم كانت غطاء يحمى بلاد الإسلام ، ومن إحدى مدنهم وهى فاراب ظهر أبو نصر الفارابى الذى تحدثنا عنه آنفاً .

ولدينا عن أحوال ذلك الطرف الشرقى لبلاد الإسلام معلومات قيمة أتانا بها عالم مسلم من أهل النصف الثانى من القرن السادس وأوائل النصف الأول من القرن

السابع الهجرى هو ياقوت الحموى (٥٧٥ ــ ٦٢٦ هـ / ١١٧٩ ــ ١٢٤٩ م) وهو بشخصيته ونشاطه واهتماماته يعتبر رمزًا على أهل العلم فى ذلك العصر ، فهو رومى من بلاد الدولة البيزنطية فى آسية الصغرى ، أسره المسلمون صغيرًا وصار إلى ملكية تاجر من حلب فسماه ياقوتًا وأصبح اسمه ياقوت الرومى الحلبى ، وظهرت منه نجابة فأقبل يدرس العربية والدين والحساب ؛ فأعجب به سيده وأعتقه وجعله شريكًا له فى متجره ، ولكن ياقوتًا كان ذا ميل إلى العلم عظيم فمضى يدرس ويقرأ ويلتهم الكتب التهاماً واستعرب الرجل روحًا وإحساسًا فسمى نفسه شهاب الدين أبا عبد الله يعقوب ابن عبد الله الحموى ، وانتابه خوف داخلى على مصير أمة الإسلام فمضى يجوب بلادها من حدود الهند إلى مصر ، وفى سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) كان فى مرو يقرأ فى مكتباتها الكثيرة وكان قد شرع فى تأليف كتابه الأشهر « معجم البلدان » ، وهناك بلغته أخبار اجتياح جموع المغول شرق الدولة الإسلامية واستيلائهم على سمرقند وبخارى وبلاد ما وراء النهر ، فحمل المسكين كتبه وأوراقه وفر أمام الزحف المغولى حتى وصل إلى حلب ، وهناك لقى كرامة من الوزير ابن القفطى ؛ فاستقر فى كنفه ومضى يكمل معجمه ثم نهض مرة أخرى فجاب بلاد الإسلام وعاد إلى حلب فأتم كتابه معجم البلدان ثم أتبعه بمعجم الأدباء وتوفى فى (٢٠ رمضان ٦٢٦ هـ / ٢٠ أغسطس ١٢٤٩ م) مخلفاً لنا ذخرين من أجلِّ ما تفخر به مكتبة الحضارة العالمية ، واحد هو معجم أبجدى لكل بلاد الدنيا مع مقدمات ودراسات غاية فى القيمة العلمية ، والثانى قاموس أبجدى بأعلام العلم فى تاريخ الإسلام ، وقد افتتح الرجل بذلك عصر الموسوعات فى تاريخ الفكر العربى ، وما الذى جعل ياقوت الحموى يجتهد هذا الاجتهاد فى عمل هذين السجلين العظيمين عن بلاد الإسلام وتاريخها العلمى ؟

السبب فيما أرى كان شعورًا خفيًا بأن العاصفة المغولية التى فر أمامها هى القارعة المنذرة بالويلات لأمة الإسلام ، وكانت كارثة الأندلس فى ذهن هذا الرجل وهو يكتب ففى كتاباته عن بلاد ما وراء النهر وما كان فيها من عمران إسلامى ثم ما أصابها من التخريب بعد ذلك ، وأسباب ذلك البلاء فى ذلك ما يؤكد لنا إحساس هذا الرجل بذلك البلاء القادم وحرصه على أن يترك لنا صورة جغرافية وحضارية لعالم الإسلام قبل قيام الساعة .

فقد كان الرجل كما قلنا فى مرو على نهر سيحون عندما أتته أنباء اقتحام المغول بلاد الإسلام فاستمع إليه يصف الناس أى أفراد الأمة ، فى بلاد خراسان وما وراء النهر « فى أهل هذه البلاد عدل حقيقى وبقية من عدل العمرين وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » وهو يقول إن « اسبيجاب (شمالى ما وراء النهر) والطالقان ومرو وساوة ، كانت إذ ذاك من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبًا وشجرًا ومياهًا ورياضًا مزدهرة » (معجم البلدان : ١ / ١٧٩ ، ٤ / ٧ ، ٥ / ١١٤) .

أما حكام البلاد فلا يعجبونه فهم على العادة أهل ظلم وشر ، وهو يقول : إن خراب بلاد كرمان مثلاً (جنوب خراسان) خربت باختلاف الأيدى عليها ، أما بلاد العراق فقد تخربت بسبب مداومة العساكر السلجوقية ومرورهم عليها ونزولهم فيها .. وخلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضًا إذ كان كل من ملك لا يحتفل بالعمارة إذ كان غرضه أن يحوصل (يملأ حوصلته) ويطير فجلا عنه أهله واستمر خرابه (ياقوت ١ / ٤٩٦ ، ٤ / ٤٥٤ ، ٥ / ٣٢٥) .

وقد ذكرت لك أن خبر دخول التتار فى بلاد الإسلام وصل ياقوت وهو فى مرو سنة (٦١٦ هـ / ١٢٢٠ م) وقد أقام فيها ثلاثة أعوام كانت من أجمل فترات عمره لما فى أهلها من طيب الخلق وحسن العشرة وهو يقول : إنه فارقها وفيها عشر خزائن للوقف (خزائن كتب أى مكتبات) لم أر مثلها جودة وكثرة وهو يعد فيها أربع مدارس وعددًا عظيمًا من الخانقاوات « التكايا » ويضيف أن كتب هذه المكتبات والمدارس والتكايا كانت تعار لمن أراد بدون رهن .

وهذه المدارس والتكايا انتشرت انتشارًا واسعًا فى عالم الإسلام كله حتى عد المقريزى من مدارس القاهرة ما يزيد على أربعين كلها تدرس نفس العلوم : الحديث والفقه واللغة ولكل منها أوقاف واسعة وشيخ المدرسة يكون في نفس الوقت ناظر الوقف وهو صاحب التصرف فى أمواله ، فكانت مشيخات المدارس موضع تنافس الشيوخ وتقاتلهم ، ومن هنا فإن كثرة المدارس والمشيخات ونظارات الأوقاف أصبحت ميادين قتال بين العلماء والسلاطين استخدموا تلك الوظائف للسيطرة على العلماء .

وهاتان حقيقتان أحب أن ننتبه إليهما : الأولى أن العلم تجمد وأصبح كتبًا مكررة فى نفس الموضوعات تحت عنوانات مختلفة ، والعلماء تحول جهدهم من الطلب الحقيقى

إلى طلب الوظائف ومشيخات الأوقاف ، فقلَّتْ الكتب الجديدة حتى أصبحت نادرة ، وقل العلماء الصالحون الذين عصمهم الله من فتنة الوظائف وأموال الأوقاف ؛ حتى أصبحوا نوادر ، والسبب فى ذلك واضح وهو أن العلم فى كل زمان ومكان لا يتقدم إلا فى عصور الرخاء والعدل والحرية ، أما مع الظلم والاستبداد فلا يكون علم أو خير أبدًا ، وما دامت حركة الحياة قد بطؤت كما يبطؤ نبض الحيوان نائم الشتاء فقد تجمد العلم أيضًا ولم يصبح العلم فكرًا بل حفظًا ، وكبار علماء العصر السابع الهجرى وما بعده أصبحوا يسمون الحفاظ ، وبعضهم كان يحفظ مكتبة كاملة وأنت تذكر بالطبع ما كانوا يحكونه عن أهل الصين القدماء من أنهم كانوا يضعون رجلى البنت فى قالب من حديد فيتوقف نمو الرجلين ، فأذكر هنا أن نظم الحكم الجامدة الظالمة كانت قوالب من حديد وضع فيها الفكر العربى فوقف نموه ، وتستطيع أن تقول : إن الفكر العربى كله وضع فى فريزر ضخم محافظة عليه من الضياع فجمد حيث وضع وما دام العلم قد أصبح حفظًا واستظهارًا فقد فقد روحه وطلاوته وأصبح الشيوخ ـ إلا من عصم ربك ـ نسخًا بعضهم من بعض ، وكل منهم أصبح خزانة كتب متنقلة وكل منهم وقف يرقب الآخر ويحصى عليه خطأ فى كلمة أو حديث أو رواية ، فبدأت ظاهرة تستطيع أن تسميها الحرب الأهلية بين العلماء ، واجتهد كل منهم فى تجريح غيره وتزكية نفسه لكى يفوز بالمشيخات ووظائف التدريس وأموال الأوقاف ، ومن هنا فإننا نشهد للعلم وأهله من القرن السابع فما بعده منظرًا لا يروق ولا يسعد أبدًا ، وهذا حكم عام وله استثناءات كثيرة مسعدة وأحب أن أبدأ بها هنا حتى لا تضيق نفس القارىء بما ترى من مظاهر حرب العلماء مع بعضهم وتدهورهم فى النهاية .

* * *

أقول : إن عصور الحفاظ أو خزائن الكتب الحية هذه لم تخل من نماذج جليلة جديرة بكل تقدير ، وأبدأ هنا بذكر الشيخ محيى الدين النووى المتوفى سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) وهو أحفظ أهل زمانه بلا ريب فقد حفظ القرآن الكريم وتفسير الطبرى وحفظ كتب الحديث الستة الرئيسية البخارى ومسلم ومسند أحمد وسنن أبى داود

وسنن ابن ماجة وسنن النسائى بشروحها هذا إلى عدد كبير من كتب الفقه والأدب حتى أصبح هذا الشيخ الجليل خزانة كتب متنقلة ، ولكن الذى ميزه عن غيره هو التزامه بواجب العلماء فى توجيه أهل الحكم إلى الطريق السوى وشجاعته الباهرة فى ذلك الميدان ، وقد عاش الرجل فى عصر الظاهر بيبرس ثانى سلاطين المماليك البحرية وهو عصر العلماء الكبار ومشاهير أولياء الله ، وأشهر من نذكره منهم عز الدين بن عبد السلام ، والسيد أحمد البدوى الولى المشهور بمصر ، فكان النووى أشجع العلماء فى مواجهة السلطان بيبرس وأجرأهم عليه وهو فى هذا المجال يفوق عز الدين بن عبد السلام بمراحل ، فقد نطق بالحق عندما سكت عنه عز الدين بن عبد السلام رغم دعواه العريضة فى ذلك ، فقد كان ابن عبد السلام شيخًا كثير الدعوة لنفسه يتظاهر بالجرأة فى الحق وله فى ذلك مواقف كثيرة ولكنه فى الحقيقة كان من فقهاء السلطنة ، وقد غطى بدعواه العريضة على شيوخ أجلاء ربما كانوا أعلم منه وأتقى وأشجع ، وأكبر الأمثلة على ذلك الفقيه المصرى تقى الدين بن دقيق العيد فقد ضايقه عز الدين بن عبد السلام وزاحمه فى بلده مصر ، ووجد ابن دقيق العيد الفقيه الجليل أن يترك الميدان لابن عبد السلام ويلزم بلده قوص .

وقد كان الظاهر بيبرس رغم اتساع ملكه فى حاجة دائمة إلى المال ؛ لأنه كان يكثر من شراء غلمان الأتراك لكى يستعين بهم فى حروبه ضد بقايا الصليبيين ، ولكى ينشىء لنفسه عزوة وقوة عسكرية خاصة به ، وكان لهذا يشتد على الناس فى جمع الأموال ، وكان عز الدين بن عبد السلام يقر الظاهر بيبرس على الكثير من ذلك ، أما النووى فكان لا يتردد فى الكتابة إلى السلطان دفاعًا عن الناس ، وقد احتفظ لنا السيوطى فى كتاب « حسن المحاضرة » بالكثير من نصوص تلك الخطابات ، ونقرأ فى أحدها أن السلطان بيبرس عندما اشتط فى فرض الجبايات على أهل الشام كتب إليه الإمام النووى يقول : « إن أهل الشام من هذه السنة فى ضيق وضعف حال بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار وقلة الغلات والنبات وهلاك المواشى وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية ، ونصيحته (أى نصيحة السلطان) فى مصلحته ومصلحتهم (مصلحة الرعية) » .

وقد غضب الظاهر بيبرس من كلام النووى واستنكره ، فهاجم العلماء وغيرهم بسكوتهم عن نصيحة طغاة التتار عندما كانوا سادة شمال الشام ، وأخذ يهدد العلماء

بالعقاب إذا هم لم يكفوا عن الاعتراض عليه ، فيكتب إليه النووى يقول : وأما ما ذكر فى الجواب (جواب السلطان) أننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا فى البلاد ، فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان وأهل القرآن بطغاة الكفار ، وبأى شىء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئًا من ديننا ؟ .. وأما أنا فى نفسى فلا يضرنى التهديد ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ، فإنى أعتقد أن هذا واجب علىَّ وعلى غيرى وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا وألا نخاف فى الله لومة لائم ونحن نحب السلطان فى كل حال وما ينفعه فى آخرته ودنياه .

وقد أراد السلطان بيبرس أن يحرج النووى ويضطره إلى الموافقة على الضرائب المجحفة فجمع العلماء جميعًا وجعلهم يوقعون بالموافقة بما فيهم عز الدين بن عبد السلام ، ثم استدعى محيى الدين النووى ليوقع فرفض وقال له : أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندقدار وليس لك مال وقد منّ الله عليك وجعلك ملكًا وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة (ثوب موشى بالذهب) من ذهب وعندك مائة جارية لكل جارية حق (بضم القاف) من الحلى فإن أنفقت ذلك كله وبقيت مماليك بالبنود والصوف بدلاً من الحوائص وبقية الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر وقال : أخرج من بلدى (دمشق) فقال : السمع والطاعة وخرج إلى قريته نوى . فقال الفقهاء : إن هذا من كبار فقهائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر .

وهذه الحكاية تدحض القصة التى لا يصدقها العقل والتى يرويها السيوطى فى حسن المحاضرة عن أن عز الدين بن عبد السلام أفتى بضرورة بيع المماليك بما فيهم السلطان ؛ لأنهم ملك الأمة والحقيقة أن عز الدين بن عبد السلام كان مع فقهه وعلمه من فقهاء السلطان وكان فى أكثر أمره يوافق السلاطين على ما يريدون ، ولكنه كان يستبسل مع رجال السلطان وكان السلطان لا ينكر أن يهان بعض رجاله أمام الناس حتى تنكسر نفوسهم ، بل إن عز الدين بن عبد السلام كان قبل ذلك يوافق سيف الدين قطز على ما يريد من فرض الضرائب على الناس للاستعانة بالمال على حرب التتار والفرنج ، وكان السلطان سيف الدين قطز أول سلاطين المماليك بعد الأيوبيين محببًا

إلى الشيوخ والناس لإخلاصه فى جهاد التتار فى حين أن المماليك البحرية ورأسهم بيبرس البندقدارى كانوا يدبرون للقضاء عليه للاستيلاء على السلطنة ، وعندما خرج قطز لحرب التتار عند عين جالوت كان رأى بيبرس وأصحابه أن ينسحبوا إلى مصر أمام التتار ، ولكن متطوعة المصريين وأهل الشام كانوا قد دخلوا المعركة وبدأ التتار يجتاحونهم بالخيل والسيوف ، فنادى قطز المماليك ودعاهم إلى دخول المعركة فلم يسمعوا له فغضب وخلع عمامته ورمى بها إلى الأرض وهدد المماليك بالعقاب ، ودخل المعركة فأحرج المماليك البحرية واضطروا إلى دخول المعركة وانتصر المسلمون مع سلطانهم قطز ، وخاف بيبرس والمماليك البحرية من انتقام السلطان فقتلوه فى بلبيس وأعلن بيبرس نفسه سلطانًا ولهذا نفر منه أهل مصر وصانعه الشيوخ ومنهم عز الدين ابن عبد السلام ، أما الشيخ النووى فلم يرهب بيبرس وظل على موقفه منه ، وأراد بيبرس أن ينتقم من الناس فأسرف فى فرض الضرائب فكان الشيخ النووى هو الذى وقف له ، وأراد بيبرس أن ينزع ملكية أراضى الزراعة من الناس بحجة أنها ملك لبيت المال ، فأقره على ذلك عز الدين بن عبد السلام الذى يقول السيوطى إنه أفتى ببيع السلطان نفسه ، ولكن النووى اعترض على ذلك وقال : إن ذلك أمر لا يحله أحد من علماء المسلمين . وظل ثابتًا فى موقفه حتى تراجع السلطان عن رأيه .

وليس معنى ذلك أن عز الدين بن عبد السلام لم يكن من أعلام شيوخ القرن الثامن الهجرى ، فقد كان فعلاً شيخًا جليلاً ولكنه كان ذا دعوى عريضة وجمع كبير مثله فى ذلك مثل الشيخ رشيد رضا فى العصر الحديث ، فقد كان الشيخ رشيد رضا من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، وكان يقول برأى شيخه فى ضرورة العناية بالارتقاء بالناس وتعليمهم وتحاشى الدخول فى خدمة أهل السلطان ، ويرى أن تلك هى الخطوة الأولى للنهوض بأمم الإسلام ، ومحمد عبده الذى كان فلاحًا مصريًا مثله فى ذلك مثل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ظل على مذهبه إلى آخر حياته ، أما رشيد رضا فلم تكد تلوح له فرصة الوزارة حتى ينسى مبدأه ويسرع إلى دمشق ليكون وزيرًا فى الوزارة التى ألفها فيصل بن الحسين بن على عندما توج نفسه ملكًا فى دمشق ، وعندما عصف الفرنسيون بمملكة فيصل الشامية وتبناه الإنجليز وجعلوه ملكًا على العراق أسرع الشيخ رشيد ودخل فى خدمة الملك عبد العزيز آل سعود فى نجد وصار من جملة وزرائه .

وفيما عدا النووى وابن تيمية فيما بعد فإننا نجد أنفسنا أمام علماء هم مكتبات متنقلة كلهم حفاظ يحمل الواحد منهم حمل مكتبة فى رأسه ، ولكنه عاجز عن أن يأتى بفكرة ذات بال ؛ لأن الفكر العربى والإسلامى كله كان قد دخل فى العصر الثلجى وجفَّتْ شجرته وأصبح من ذلك الحين إلى مطالع العصر الحديث تراثًا ماضيًا لا نبض فيه ولا حياة ، وإن كان ذا قيمة عظيمة .

وحالة الكوما هذه التى دخل فيها الفكر العربى هى التى جعلت شيوخه يهتمون بالماضى وحده ، كأن أمة الإسلام قد جمدت مكانها ولم يعد لها مستقبل ، والحق أن أهل العلم فى ذلك العصر من القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى أجادوا وأبدعوا فى خدمة الماضى ، وقد اتجهت هممهم نحو أربعة أنواع من النشاط الفكرى :

ـ **الشروح** والتعليقات والإضافات إلى كتب ماضية .

ـ **التاريخ** : فهذا عصر كبار المؤرخين وأصحاب الحوليات .

ـ **الموسوعات** : فهذا عصر الموسوعيين وأولهم ياقوت الذى بدأنا به هذا الفصل ثم القلقشندى صاحب« صبح الأعشى » وابن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار » والنويرى صاحب « نهاية الأرب » .

ـ **التراجم** : فهذا عصر ابن حجر العسقلانى والسخاوى وابن عساكر ، فأما عن الشروح والتعليقات فهى تنفعنا فيما نلتمس من العلم بأصحاب التفاسير والمحدثين ولكننا لن نفيد منها شيئًا ينفعنا فى حاضر أو مستقبل ؛لأن شروح البخارى مثلاً مثل عمدة القارى وفتح البارى عبارة عن نقول من كُتب الماضين وآراء لبعض المعاصرين وكل ما تقرأ فيها عبارة عن نقول يأخذها شيوخ عن شيوخ وحتى فى حل المشاكل الراهنة لهم التى كانوا يستفتون فيها كانوا لا يحاولون قط إدخال الحاضر فى حسابهم ، كأن الزمان قد تحجر عند السلف ووقف ، وفتاوى الحسن البصرى وابن سيرين تؤخذ كما هى وتطبق على مشاكل القرن الثامن الهجرى وما بعده وعندنا كتاب ضخم يقع فى أحد عشر جزءًا من القطع الكبير يسمى نوازل الو نشريسى وهو عالم من أهل المغرب من أهل القرن التاسع الهجرى والنوازل يراد بها القضايا ، وهو يعرضها ويقدم لنا آراء العلماء فيها فتتعجب كيف أن هذا الرجل يعيش فى الماضى بكل كيانه فهو لا يعرف إلا آراء الماضين ، بل هو نفسه يلغى نفسه فلا يذكر رأيًا خاصًا به .

وهذه المؤلفات المتأخرة فى الفقه والتفسير والحديث وشروحه تزيد فى ضخامة المكتبة العربية ولكنها لا تقدم لنا شعاعًا جديدًا من نور ، وأمثال هذه الكتب سهلة التأليف فإنها نقول يوضع بعضها إلى جوار بعض ، وربما وجدنا فيها فقرات من كتب قيمة ضاعت الآن كما هو الحال فى تاريخ ابن كثير المسمى بالبداية والنهاية وهو كتاب جليل ولكن صاحبه كان يرى أن التاريخ قد انتهى وتوقف عند السلف الصالح ، فالبداية عنده هى العصر النبوى والنهاية هى القرن الخامس الهجرى مثلاً ، وفى هذا التيار تسقط من الحساب كل المؤلفات فى علوم المعاش كالطب والهندسة والصيدلة والجغرافية ، فلا نجد منها شيئًا جديدًا ، بل ينحط مستوى العلم ومكان كتاب الشفا لابن سينا نجد « تذكرة داود » ، ومحل الإدريسى نجد ابن الوردى ، ومحل كتاب « الحيوان » للجاحظ نجد كتاب « حياة الحيوان » للدميرى ، وكل هذه مؤلفات تفيض بأحاديث الخرافة والأوهام ، بل يعود الناس إلى القول بأن الأرض مسطحة وأنها محمولة على قرن ثور وينسى الناس جميعًا ما أجهد الإدريسى والبيرونى وأمثالهم أنفسهم فيه من البرهنة على كروية الأرض .

وأما الموسوعات فربما كانت خير ما خلفه لنا عصر الجليد هذا وهى فى مجموعها كتب ألفها رجال ممن كانوا يعملون فى دواوين الإنشاء أى سكرتاريات الدول ، وهم يؤلفونها لأمثالهم فيقدمون فيها خلاصة للمعلومات التى ينبغى أن يحوزها الإنسان ليكون كاتبًا محترمًا فى دواوين السلاطين ، وهذا النوع من التأليف بدأ فى تونس على يد رجل ممن كانوا يخدمون فى ديوان الإنشاء عند الحفصيين وهو أبو الفضل أحمد بن يوسف التيفاشى المتوفى سنة (٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م) ، وقد ألف موسوعة لاستخدام رجال ديوان الإنشاء جعل عنوانها « فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » ولم نعثر على الكتاب كاملاً ولكننا عثرنا على فصول منه اعتبرت كتبًا قائمة بذواتها مثل أزهار الأفكار فى منافع الأحجار وموضوعه المعادن ، ونزهة الألباب مما لا يوجد فى كتاب وموضوعه الأدب ، وقد اطلع على هذه الموسوعة أبو الحسن على بن سعيد المغربى (٦٠٥ ـ ٦٨٥ هـ / ١٢٠٨ ـ ١٢٨٦ م) وهو موسوعى أندلسى غادر بلاده الأندلس سنة (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ ـ ١٢٤١ م) ومضى يذرع بلاد الإسلام حاملاً علمًا غزيرًا عن الأندلس حمله معه إلى المشرق ومضى يطوف به على عواصم الإسلام ، يعيش منه ويزهى به ، وقد خلف لنا ذخيرة ضخمة من الكتب تعتبر من أهم

ما نعتمد عليه فى التاريخ الفكرى للأندلس ، وفى مروره بتونس أراد أن يستقر فيها ولكن قريبًا له خاف منه فلم يزل حتى أخرجه إلى المشرق ، ولكن على بن سعيد اطلع هناك على موسوعة التيفاشى وربما يكون قد نقل منها كتابًا كاملاً من كتبه فى الجغرافيا وهو بسط الأرض فى طولها والعرض .

ولكن الموسوعيين المشرقيين لم يظهروا فى مصر والشام إلا بعد قرن من الزمان فإن النويرى صاحب نهاية الأرب توفى سنة (٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار توفى سنة (٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) ، والقلقشندى توفى سنة (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، وهذه الموسوعات بين أيدى الناس فلا حاجة لى إلى الكلام عنها فى هذا الموجز فليس فيها فكر جديد حى ، إنما هى صناديق من المعلومات المجمدة ، وعندما نقوم نحن اليوم بتحقيقها ونشرها فإننا نسمى هذا العمل إحياء التراث أى إخراجه من الثلاجة وإدخاله غرفة الإنعاش .

وهذا العصر هو عصر مشاهير المؤرخين المتأخرين ، ابن خلدون والمقريزى وابن تغري بردى وابن حجر العسقلانى والسخاوى .

فأما ابن خلدون فقد تحدثنا عنه فيما مضى ، وأما مؤرخو العصور المتأخرة وعلى رأسهم تقى الدين المقريزى فجماعون يأخذ بعضهم من بعض ويضيف إلى سجل التاريخ ذكر الحوادث إلى أيامه ، وأعظم أولئك المؤرخين مكانًا تقى الدين المقريزى المتوفى (٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، وهو مؤرخ موسوعى فعلاً خَلَّف لنا ثروة عظيمة القيمة من المؤلفات فى التاريخ مثل « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، وهو تاريخ عالمى مرتب على السنين وأهميته ترجع إلى ما كتب عن عصره وهو عصر المماليك وهو تلميذ ابن خلدون ، ولكن أثر ابن خلدون عنده لا يظهر إلا فى كتاب صغير من كتبه يسمى « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وهو تاريخ اقتصادى اجتماعى لمصر والشام ، وهو من هذه الناحية فريد فى بابه ، وللمقريزى كتاب « الخطط » وهو وصف دقيق موسع لبلاد مصر وخاصة القاهرة مع تاريخ عام لمصر ووصف قيّم للمجتمع المصرى فى عصره .

ويلى المقريزى فى سجل المؤرخين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى وهو تلميذه وهو أمير المؤرخين المصريين أدبًا وذوقًا ، وإن لم يكن أوسعهم علمًا ، وهو من بيت كبير إذ إنه ينحدر من بيت مملوكى ، ولهذا فإن معاصره ابن حجر العسقلانى يعيره دائمًا

بأنه تركى ويقول : وماذا يجيء من تركى ؟ ولكن أبا المحاسن وهب نفسه للتاريخ وأصبح مؤرخ عصره يسجل الحوادث يومًا بعد يوم حتى إنه كان إذا بارح مصر كلف رجلاً آخر بأن يسجل الحوادث مكانه .

ثم نأتى بعد ذلك إلى كبار أصحاب كتب التراجم وعلى رأسهم محمد بن عبد الرحمن السخاوى (٨٣١ ــ ٩٠٢ هـ / ١٤٢٨ ــ ١٤٩٦ م) ، وهو واسطة عقد أصحاب كتب التراجم وكان رجلاً واسع العلم بصورة لا تصدق فقد حوى صدره من العلم ما لم يَحْوِهِ صدر عالم آخر ربما فى التاريخ ، وهو تلميذ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة (٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) ، وبدر الدين محمود بن أحمد العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، وأستاذ جلال الدين السيوطى المتوفى (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

والقيمة العلمية التاريخية لهؤلاء المؤرخين وأصحاب التراجم لا تحتاج إلى بيان ولكن الذى يحتاج منا إلى وقفة هنا هو موقف معظم أولئك الأعلام بعضهم من بعض واتجاههم إلى التجريح والشتم وتتبع معايب بعضهم بعضًا مما يضفى على صورة العلماء فى ذلك العصر ظلالاً قاتمة ، فهم لم يغادروا أحدًا إلا جرحوه ، والمثال المعروف لهذا العدوان كان ابن حجر فهو لم يدع عالمًا إلا ناله بلسانه وورث عنه هذه الخصلة الذميمة تلميذه شمس الدين السخاوى ، ويكفى أن أذكر لك هنا ما قاله فى ابن خلدون من أنه يتبسط بالسكنى على البحر وأكثر من سماع المطربات ومعاشرة الأحداث ، وتزوج بامرأة لها أخ أمرد ينسب إلى التخليط فكثرت الشناعة عليه (الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ٤ / ١٤٥ ترجمة رقم ٣٨٧) ، فإذا كان هذا قوله فى ابن خلدون فتصور ما قاله فى غيره وهو كثير جدًا ومعيب جدًا ، وهو قطعًا يشين السخاوى ؛ لأن معظم هذا العدوان كان ناشئًا عن التنافس على مشيخات المدارس وأوقافها .

ولكن الطامة الكبرى في عدوان العلماء بعضهم على بعض تتجلى لنا في كتاب شائن ألفه جلال الدين السيوطى فى ذم شيخه السخاوي وسماه « الكاوى فى تاريخ السخاوى » ، وقد صاغه السيوطى فى صورة مقامة بذيئة اللفظ اعتدى فيها على شيخه فأخرجه من جملة العلماء أصلاً ، بل لم يستح من أن يعتدى على شرف الرجل ، والسبب الحقيقى فى ذلك العدوان هو التنافس على وظائف التدريس وما فيها من الأوقاف ، ولعن

الله الحرص فقد أذل أعناق الرجال ، وما رأيك فى رجل يقول فى شيخه وأستاذه وهو على ذلك حقير نقير لا يباع فى سوق العلم بقطمير ، ولا نسبه فى الأنساب عال ، ولا حسبه إذا قومت الأحساب غال ، ولا يزداد إلا جهلاً على كر الأيام والليالى .

فهل فهمت الآن لماذا جعلت عنوان هذا الفصل الفكر العربى فى العصر الحجرى ؟

* * *